

## الحكمة العملية فكر الفكر العربي الاسلامي

### مُرجعة التعاملية والسياسة الفاضلة عند الفارابي

د. علي زيمور

#### (١) - السياسة هي المسألة الأولى، أولويتها المطلقة

السياسة هي المسألة، وهي الكل؛ إنها في البداية: ونلقاها توجه الغاية للسلوك معاً وللنظرة. فالسياسة، في الفكر العربي الاسلامي، لم تكن يوماً في منزلة غير أولى. إنها كالكافية النافية؛ فبحكم ارتباطها بالدين، لم تقبل بشريك، ولا بصاحب هو صديق أو منافس. لقد قادت كل شيء، واحتوت كل نشاط، وانوجدت عند كل فكرة وفرقة وحركة.

والفارابي، من حيث أخذه هنا كعين أو كموضوع دراسة، لم يشذ عن ذلك الأخذ للسياسة كعلم أول، أو « فلسفة » هي الأرفع إطلاقاً. لقد أخذ كلمة « سياسة » بمعناها العربي الاسلامي الذي، تكراراً، يطال ما يطال وما لا يطال، ويلف الحياة ابتداء من المولد حتى النضج والموت، واحتواشاً للسلوك الفردي، والعائلي، والاقتصادي، من دون اغفال شئ أعمال السلطة من حيث تكوينها ومسارها، ووظائفها<sup>(١)</sup>. وهي، طبعاً، كل نظر وتدبر، كل تفكير، وقمة العلوم. السياسة تدبير<sup>(٢)</sup>؛ وهي عند الفارابي، مثلما هي في تراثنا المكتوب والشفهي أو الميوش والفكراني، أعم مصطلح فكري. إنها الأساس والتاج. وهي، في ذلك المنظور، لا تنفصل عن الفلسفة من حيث كون الفلسفة معرفة بالعلل الأولى، أو كونها علم الوجود، أو علم المبادئ الأولى. السياسة فلسفة، والفلسفة سياسة؛ فالسياسة كالفلسفة نظر معاً ومعرفة مرتبطة بالسلوك والواقع. وبخطوة أخرى نبلغ القول: إن السياسة الفارابية هي اهتمام بالانسان من حيث هو كائن يحيا في مجتمع، ويقوم بنشاطات، ويقم علاقات، ويبني سلطة. وهكذا، فان السياسة لا تكون دون نظر فلسفي، لا تكون دون فلسفة أو، على الأقل، دون معارف منسقة ومنسقة، قائمة.

فيلسوفنا الفارابي، مفكر سياسي. رأى في السياسة علماً أرفع من كل علم، وينتفع من كل علم، ثم يتمثل

كل المعارف ويتوجّها. وهكذا فالسياسة عنده تقوم على الفلسفة، مثلما تقوم الفلسفة على السياسة.

قلنا: إنّ السياسة هدف أول عند الفارابي. ودليلنا متشعب الفروع، وأولها كون السياسة والدين، في الاسلام، وفي الأمم السابقة عموماً، وجهان للظاهرة الواحدة<sup>(٣)</sup>؛ ثم إن الفارابي رأى أن المثل الأعلى يتجسد في الحاكم (أو السياسي) الفيلسوف، أو في الامام الذي يكون خليفة ومعلماً. وحتى عناوين كتب أبي نصر تنبئ، كما سنرى، عن رغبته البارزة في اقامة السياسة والماورائيات في وحدة جامعة، وربطهما بحيث لا ينفصلان<sup>(٤)</sup> كالحال، تكراراً، في الفكر الاسلامي المتدين والمتفلسف في الاسلام.

## ٢) ارتباط السياسة والآداب بالمعرفة، الكمال عن طريق المعرفة

يعطي الفارابي للمعرفة دوراً ركيزياً في فلسفته وفي آدابه. لقد رأينا أن السياسة تقوم على ما ورائيات، أو تنبئ على الفكر، وتأتي في الزمن لا في الرتبة، بعد الكلام عن العقيدة.

الآراء تُحدّد المجتمع، وتقوده. فتكون المدينة (الدولة؛ الحكم؛ السلطة) على غرار الآراء والمبادئ السائدة. لذلك يبرز الفارابي سياسياً في فلسفته؛ فالأفكارية مقدمة وأساس لتاج هو مجتمع فاضل، والعمارة هي تنظيم السلطة بحيث تكون فاضلة، مثالية، تضم في شموليتها المعمورة قاطبة. الفكر في البداية، وهو في الأساس للعمل والسياسة. نجد ذلك في النّماطة (علم الأنماط) التي يضعها الفارابي للمدن<sup>(٥)</sup>، وفي الآداب التي يقدمها للانسان في تعامله اليومي مع أقرانه والأوضاع والرؤساء على جميع المستويات والنشاطات، وقد عرضها في: «جوامع السياسة» أو «رسالة في السياسة».

والسياسة عند الفارابي، ليست، فقط، كما يشدّد المفكرون المسلمون، علم النبوات والأخلاق والتعامليات<sup>(٦)</sup>. فهي عنده تتبع أيضاً من التقري والنظر. يقول أبو نصر: «إن أنفع الأمور التي يسلكها المرء في استجلاب علم السياسة<sup>(٧)</sup>، وغيره من العلوم، أن يتأمل أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم، ما شهدها وما غاب عنه مما سمعه وتناهى إليه منها، وأن يعين النظر فيها، ويميز بين محاسنها ومساوئها، ويبين النافع والضار لهم منها...»<sup>(٨)</sup>؛ وهكذا، فالسياسة تقوم على الالهيات والنبويات من جهة، وعلى أعمال النظر والتفكير من جهة أخرى: فلا سياسة مدنيّة، ولا علم سياسة أو فلسفة سياسية، من دون معرفة الماورائيات، ومبادئ الموجودات، والآراء في الملة، والكلام في العقيدة. وليس قصد الفارابي ما ورائياً فقط، أو فلسفياً فقط، بل هدفه هُما معاً، جميعاً وسوياً، بالإضافة إلى الفلسفة، العمل السياسي؛ أي فنّ السياسة بعلمها وفلسفتها. وكما أن السياسيات والالهيات واحد عند الفارابي وفي الاسلام، فكذلك لا سياسة، على الصعيد التعاملي، بدون نظر، وفلسفة، وأفكارية. وبذلك فالآدابية، مثل السياسة المدنية، هي عملية معاً ونظرية، وهي سلوكية فقط. وما هو فلسفي هو سياسي وتعاملي وآدائي أيضاً.

المعرفة، وقد سبق القول، أساس؛ فالمعرفة، في الآدابية والتعامليات، تقود إلى الاكتمال والسير باتجاه

تحقيق «الفيلسوف الحاكم» في نفس الانسان، أو مزج الفضيلة بالسعادة مزجاً هو الخير الأسمى. الفاضل فاضل بآرائه، والسعيد يؤمن النجاح بآرائه، بآدائته. من هنا، وبشكل متواز، وبانطلاق من المعرفة، يرسم الفارابي أدابية للفرد وسياسة للمدينة: كيف ينجح الانسان، كيف يقوم بعمله على الوجه الأكمل، كيف يحقق الكمال في السلوك، وما إلى ذلك من قواعد ومثل وكيفيات، هي غرض الأدابية. أما السياسات للمدن، فرغم أنها ارتبطت أكثر بالماورائيات والفلسفة، فانها تبقى، كما في الأدابية والتعاملات وسياسة المنزل، رسم القواعد المثالية لنجاح المجتمع ولزج الخير بالسعادة عند الجماعة كي تتأمن المدينة الفاضلة.

### (٣) - نوعا المعرفة المتغلبة في الأدابية وفي السياسات

المعرفة المتغلبة في قطاع الأدابية تقترب من نوع «الحس والمشاهدة»، حيث الدور الأول للتجرب، ولتأمل الوقائع الراهنة أو التاريخية<sup>(٩)</sup>؛ بغية تحليلها واستخراج العظة منها. والحقيقة أن تلك المعرفة احتلت مركزاً مرموقاً في الفكر العربي الاسلامي، وقد سبق لنا، في مكان آخر، أن قرّبنا بينها وبين المعرفة التجريبية (الاحترافية، الخبورية/الأميركية) التي اشتهر بها المفكرون الانكليز. فالعقل مع الاختبار والتلمس، أشهر عناصر المعرفة «بالحس والمشاهدة» السابق للتجريب العقلاني المنظم.

أما المعرفة المتغلبة في دنيا السياسات الخاصة (علم المدن أو فلسفة السياسة)<sup>(١٠)</sup>، فانها تقترب من صلب الملة. فهنا ينتقل الفارابي إلى نوع آخر من المعرفة يكون قريباً من الغنوصية، ومن المعرفة اللدنية والدينية؛ وهنا لا نفصل. فما هي المبادئ المعرفية التي يتطلبها الفارابي للبدء بالعمل السياسي بقطاعاته، ويضعها في التمهيد والمنطلق للحياة الانسانية والنشاط الاجتماعي؟

### (٤) - مبادئ الموجودات أو المبادئ المعرفية المؤسسة للسياسة:

تقوم السياسة على مبادئ معرفية. وهكذا، فان «أول ما ينبغي أن يتبدى به المرء هو أن يعلم أن لهذا العالم وأجزائه صانعاً»<sup>(١١)</sup>. ثم يلجأ الفارابي إلى تبيان وجود الله، مستنداً إلى أن الأسباب متناهية؛ فالكثير ينتهي إلى الواحد الذي هو سبب الأسباب. وسبب الأسباب موجود، وهو واحد. والمبدأ الثاني، الذي على الانسان معرفته، هو أن الباري يوصف بالألفاظ المستعملة؛ إلا أنه «لا يلحقه شيء من جميع الأوصاف» التي يشاهدها الانسان ويعلمها؛ لأن الله متفرد بذاته، منزّه عن الحسيات والمعارف<sup>(١٢)</sup>، ولا يتهيأ لأحد إحاطة العلم به كما هو.

والمبدأ الثالث، هو أن الموجودات<sup>(١٣)</sup> صنفان: فاضل وخيس، وأن أفضلهما هو ذو نفس، وأفضل ذوي الأنفس ما له الاختيار والإرادة والحركة، وأن أفضل هذه الأخيرة هو «الذي له التمييز والفكر والنظر البالغ في العواقب؛ أي هو الانسان. والمبدأ الرابع، هو أن الواجب والعدل يقضيان بسنّ منهم للانسان؛ ومن هنا تنبع ضرورة الوحي. ففي الناس تفاضل، والنبي بالوحي يبلغ الأحكام ورسم السبل إلى صلاح

الخلق. يبقى المبدأ الأخير، وهو أن المكافأة واجبة في الطبيعة وفي الأعمال المقرونة بالنيّات<sup>(١٤)</sup>. ومن اعتقد بما تقدم ذكره، من معرفة الباري ووجدانيته وتنزّهه ومعرفة الرسل، وانتهج النهج المستقيم، فانه يجد في أحواله استقامة، وعند الأخيار حظوة، وفي معاشه سداداً؛ وتلك هي السياسة. ومن عرف ما سبق أقدم على «سياسة الأحوال» بقلب قوي. فما هي سياسة الأحوال؛ أي ما هي التعامليات أو آدابية التعامل مع الرؤساء والأكفاء والأوضاعين؟

لقد انطلق الفارابي، كما رأينا في كتبه الأخرى أو كتب النضج وسياسة المدن وفي مؤلفه الصغير عن التعامليات والآدابية، من فلسفة هي فهم للوجود والله والانسان. لقد جعل تلك الفلسفة أساساً للسياسة، بل جعلها والسياسة ظاهرة متعاضدة.

#### ٥ - اهمال دراسة الآدابية أو سياسة التعامل البيفردي بين الفئات

لم يُدرَسْ هذا القطاع السياسي، عند الفارابي، كقطاع مستقل، ولا كقطاع متداخل مع علم السياسة أو كقسم أساسي منها. لقد اهتم دارسو سياسة الفارابي بالتوقف عند معالجته للمدينة الفاضلة وما حول ذلك من اجتماعيات ومباحث في الخلافة. وخطأ ذلك اسقاط المعنى الحديث، المعنى الغربي، للسياسة، على مفهومها قديماً أو تراثياً. فالسياسة، بالمعنى التراثي، تشمل التعامليات وسياسة الأمة وسياسة المنزل. وهي تشمل معاً النظر والفعل في تلك الميادين، الجماعي منها ونشاطات الانسان الفردية والعائلية والاجتماعية. وبهذا، فالسياسة كانت تطل التآدب، والأخلاق، والدين بشعائره ومعتقداته، والعلائق العائلية والاقتصادية والاجتماعية، والإمامة من حيث تكونها ووظائفها وانتقالها وأنواعها<sup>(١٥)</sup>.

#### ٦ - الفارابي في «جوامع السياسة»، التعامليات والسياسة المنزلية

للفارابي كتيب في السياسة التعاملية التي لم يكتبها في موسوعاته المخصصة لعلم السياسة أو للعلم المدني أو للفلسفة السياسية. وذلك الكتيب، موضوع دراستنا الآن، يتعلق بسياسة الفرد لذاته؛ أي في علائقه مع ذاته، ومع أهل بيته، ودخله وخرجه وأصدقائه، والحلقة الاجتماعية التي ينتمي إليها؛ أي بالسياسة المنزلية بحسب تسمية ابن سينا ومسكويه والطوسي. ويجعل ذلك الكتيب اسم «رسالة في السياسة» أو، بحسب تسمية هي الأدق: «جوامع السياسة».

#### ٧ - نسبتها الأكيدة للفارابي

لا يصح، ولا ينفع، الشك في انتساب «جوامع السياسة» إلى الفارابي. تلك الرُسَيْلَة، أوردها له ابن أبي أصيبعة<sup>(١٦)</sup>، والصفدي<sup>(١٧)</sup>، واسماعيل البغدادي<sup>(١٨)</sup>، والزركلي<sup>(١٩)</sup>، وحسن الصدر<sup>(٢٠)</sup>، وحسين علي محفوظ<sup>(٢١)</sup>. وهناك آخرون أوردها له تحت اسم «رسالة في السياسة»<sup>(٢٢)</sup>، ونشرها ل. شيخو تحت ذلك

الاسم عينه<sup>(٢٣)</sup>. وفئة ثالثة أعطتها اسم: «كتاب في وصايا يعم نفعها جميع الناس»<sup>(٢٤)</sup>؛ ومخطوطات تلك الرسالة كثيرة تلقى مظاهرها وأوصاف كل منها في كتاب عن مؤلفات الفارابي<sup>(٢٥)</sup>. وفي نظري، إن ما يؤكد نسبتها، وغم أن لا شيء يترك للظن والشك فسحة، أننا تلقى تلك الرسالة داخل «الحكمة الخالدة» لمسكويه الذي أعجب بها وقدمها على أنها من عيّنات أدب الحكيم والوصايا والأقوال المسبوكة التي انتجها فكرنا العربي الاسلامي. ومن التسرع ذهابنا إلى أي تردد؛ حتى إن كنا لا نلقاها في لائحة الكتب التي أوردتها القفطي للفارابي<sup>(٢٦)</sup>. فذلك التردد يدحضه، فوق الاثباتات الواردة أعلاه، أن القفطي لا يقدم لائحة كاملة، وليس هو بمطلع كاف بقدر ما ينقل عن غيره، ولا هو بمعزل عن تسرعات النساخ وعن ظاهرة إبدال أسماء الكتب أو تغييرها وتحريفها. ثم، وأخيراً، ان في ايراد ابن أبي أصيبعة للرسالة المذكورة، باسم «كتاب جوامع السياسة مختصر» (ص ٦٠٩) ما يكفي للقناع. وسنرى الحجج عينها تدحض الشك في نسبة «رسالة في السياسة» التي وضعها ابن سينا متأثراً بعمل الفارابي الذي سندرسه أدناه عن السياسة المنزلية والآدابية والتعاملات كقطاع من الحكمة العملية<sup>(٢٧)</sup>. في القسم الأول أدناه، سندرس السياسة المنزلية والتعاملات من خلال «جوامع [أو رسالة] السياسة» مقسمة إلى فقرات، هي: سياسة (تعامل) الانسان إزاء الأرفعين؛ السياسة إزاء الأكفاء؛ السياسة إزاء الأوضعين، حيث نجد أيضاً التربية عند الفارابي؛ سياسة الانسان لذاته أو نفسه؛ التعاملية والمرأة.

وفي القسم الثاني، سنتناول الآدابية عند الفارابي، ونظرته إلى الانسان كما يجب أن يكون أمام الله كما يتضح في «دعاء عظيم»، وفي قصائد نلقاها صحيحة النسبة للفارابي ومتفق عليها، وفي أقوال لحكماء أعجب بها الفارابي كطريقة تعليمية سياسية، وفي وصية له.

أما القسم الثالث، والأخير، فسيكون نظرة إزائية تلي شِئْلَةَ البحث وتلفظ حكماً تقييماً عليه بعد مقارنات بالذين كتبوا، فقط من الفلاسفة المسلمين، في مجال السياسة المنزلية والآدابية (ابن سينا؛ مسكويه؛ نصير الدين الطوسي)<sup>(٢٨)</sup>. وفي تحليلنا، فان تلك الأكتوبات الفلسفية، عن السياسة المنزلية، ما تزال بحاجة للدراسة<sup>(٢٩)</sup>.

## القسم الأول

### (١) - حاجة كل انسان للسياسة، التعاملية بين الأفراد

يرى الفارابي أن كل انسان بحاجة إلى السياسة التي هي، هنا أو في القطاع منها، معرفة قواعد التصرف الأنسب في مجالات المنزل، والحياة الفردية عموماً، والسلوكات الاجتماعية. هنا تبدو كلمة سياسة، وتكراراً، مصطلحاً مرتبطاً بتنظيمات السلوك الفردي من حيث علاقات الانسان مع غيره، وفي تكوينه لذاته أخلاقياً

ومواقف ؛ بغية توفير الاحترام الذاتي في الحياة وإقامة التكيف الناجع . أما السياسة بالمعنى الخاص ، المتعلق بالدولة (المدينة) ، فليس هنا مجاله .

## ٢ - قوانين عامة في السياسة التعاملية البَيَفَرْدِيَّة

وهكذا ، فإن المعلم الثاني يقول : إنه يقدم ، في «رسالة في السياسة» ، نصائح هامة تهم كل انسان ، وتنطبق على كل فرد وكل طبقة أو أهل كل طائفة . فتلك النصائح ، التي يقول إنها السياسة ، هي قواعد عامة شاملة ترسم السلوك المثالي والسيرة الحسنة . ويسمي الفارابي تلك القواعد النُصَحِيَّةَ باسم «قوانين سياسية» ، فيبدأ بالقول : «قصداً ، في هذا القول ، ذكر قوانين سياسية يعم نفعها جميع من استعملها من طبقات الناس ، في متصرفاته مع كل طائفة<sup>(٣٠)</sup> من أهل طبقته ومن فوقه ، ومن دونه<sup>(٣١)</sup> . إلا أن الفارابي يستدرك ، فيوحي بأن تلك «القوانين» العامة التي يوردها يجب ألا تلغي الاجتهاد والحرية ؛ نظراً لوجود حالات خاصة . وبالتالي ، فلا يستطيع الإنسان «أن يستعمل في كل وقت ، مع كل واحد ، كل ضرب من ضروب السياسة<sup>(٣٢)</sup> ...»<sup>(٣٣)</sup> .

## ٣ - تقسيم الناس إلى ثلاث رتب

يقسم الفارابي الناس إلى رتب يعتبرها ، ببساطة ، رتباً طبيعية ، عفوية ، ثابتة ، وأبدية . فاذا تأمل الانسان - يقول لنا المعلم الثاني - أحوال نفسه والأوضاع التعاملية ، وجد أنَّ له رتبة خاصة يشترك فيها معه طائفة من الناس . ثم هناك رتبة أخرى أرفع ، هي رتبة من هم أعلى منه منزلة على صعيد واحد أو أكثر . وهناك رتبة طائفة من الناس هم أوضع من جهة واحدة أو من جهات كثيرة . يقول الفارابي بصدد ذلك التقسيم إلى رتب ثلاث : «إن كل واحد من الناس متى ما رجع إلى نفسه وتأمل أحوالها وأحوال غيره من أبناء الناس ، وجد نفسه في رتبة يشركه فيها طائفة منهم ، ووجد فوق رتبته طائفة منهم أعلى منزلة منه بجهة أو جهات ، ووجد دونها طائفة هم أوضع منه بجهة أو جهات<sup>(٣٤)</sup> ؛ ينطبق ذلك على الجميع ، رفيعاً كان أو وضعياً . وحتى الملك الأعظم ، في نظر الفارابي ، يخضع لذلك التقسيم . فهناك من هم في رتبته الذين هم الملوك . أما الذين هم أدنى منه ، فالرعية . ويخطئ الملك إن ظن أن لا أحد في زمانه صاحب منزلة أرفع ؛ إذ متى تأمل الملك حاله جيداً ، وجد من يفضلُه بنوع من الفضيلة<sup>(٣٥)</sup> .

وكذلك فان الوضع ، الحامل الذكر ، يجد من هم من رتبته ، ومن هم «دونه بنوع من الضعة» ، ومن هم أرفع منه .

## ٤ - أهمية هذا التقسيم الثلاثي ومنافع السياسة كفن التعامل الأنحج

رأينا الفارابي ينبه بقوة إلى أن للسياسة «قوانين عامة» يعم نفعها جميع الناس ابتداءً من الوضع حق

الملك الأعظم<sup>(٣٦)</sup>، وبعدها ينبه إلى أن المتأمل في أحوال الناس ينتفع، وعليه أن ينتفع، باستعمال السياسة مع هؤلاء الطبقات<sup>(٣٧)</sup>. وبذلك، فالواجب على الانسان أن يحسن التصرف؛ أي أن يحسن السياسة مع الأرفعين كي ينال مرتبتهم ويرتفع إلى مستوى أعلى. ثم تهدف تلك السياسة الصالحة مع الأكفاء إلى أن يتفوق الانسان عليهم ويكونَ بارزاً بينهم. «وأما مع الأوضعين فالأ ينحط إلى رتبتهم»<sup>(٣٨)</sup>.

إلا أن منافع السياسة تكون بتأمل «أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم؛ ما شهدها وما غاب منها مما سمعه». ومع تأمل الأحوال، على الانسان أن يعين النظر فيها، ويميز بين محاسنها ومساوئها. وهكذا تكون السياسة هي التمسك بالمحاسن والمنجحات والفضائل، واجتناب الرذائل؛ طلباً للسلوك المثالي. السياسة هذه فنٌ يعلم التعامل بحيث لا يقع الواحد في المثالب التي وقع فيها غيره، وكفي يتحلّى بالأخلاق والمحمودات؛ السياسية، إذًا، أخلاق، أو أنّها والأخلاق لا ينفصلان. فهما أشبه ما يكونان بعلم واحد<sup>(٣٩)</sup>، هدفهما واحد، رغم أن السياسة تبدو - للوهلة الأولى - هادفة إلى الانتفاع من الناس. فلا تتفاح هنا أخلاقي بالدرجة الأولى، وهو اعتباري وأدبي، وهو سبيل إلى الحياة الفاضلة والسلوك القويم داخل المجتمع الكبير، وفي المنزل أو المجتمع الأصغر، وفي داخل الفرد.

#### ٥ - تقسيم الناس في صيغة أخرى، الأرفعون والأكفاء والأوضعون:

سبق القول إلى أن الفارابي قسم الناس، من حيث المنزلة الاجتماعية، إلى رتب: رتبة محدّدة أولى هي رتبة الذين يتوجه المعلم الثاني إليهم بكلامه؛ أي أصحاب الوسط (الأغنياء، المثقفون). وهؤلاء هم: الأكفاء. ثم وضع فوق تلك الطائفة من الناس رتبة الأرفعين، الذين يطلق عليهم اسماً آخر هو: الرؤساء. وهناك، في المستوى الأدنى، رتبة الأوضعين؛ أي الذين هم دون الأكفاء. السياسة هي، أولاً، الوعي بهذه الرتب، وبهذا التصنيف الثلاثي للناس بحسب مكانتهم في المجتمع. وبعد ذلك، فإن السياسة، ثانياً، تُوجِبُ على صاحب كل رتبة معرفة «النهج الناجع» في التعامل، والأدب السلوكي، والتدبير، إزاء كل طبقة من الطبقات المذكورة<sup>(٤٠)</sup>. هنا تتفرع السياسة إلى فرعين كبيرين هما:

أ - السياسة للفرد إزاء الرؤساء، أو ما ينبغي له أن يستعمله مع رؤسائه كي ينجح.

ب - السياسة إزاء الأكفاء، أو ما ينبغي للمرء أن يستعمله مع أكفائه من سلوك ناجح.

#### الفقرة الأولى: سياسة المرء إزاء الأرفعين

#### ١ - وضعية المرء في علاقاته مع الرئيس

يتصف المعلم الثاني بحبه للتقسيم والتبويب؛ نجد ذلك في كتبه الكبرى، وبخاصة في عمله الكبير «إحصاء العلوم»، وفي الرسالة هذه التي ندرسها، عنيت «رسالة في السياسة». ففي هذا الكتيب يلاحظ الفارابي أن

آحوال مَنْ يتعهد الرؤساء ثلاث :

أ - حال الذي يتصدى ، بشكل دائم ، لخدمة الرؤساء ، ويبقى معهم ؛ فيلقاهم في معظم الأوقات .

ب - حال الذي يلتقى الرؤساء في بعض الأوقات<sup>(٤١)</sup> .

ج - حال من لا يكون مع الرؤساء إلا بالبعد ، ولا يعرف عنهم إلا بالأخبار .

وبناء على ذلك التصنيف ، فإن المهم هو ، فقط ، دراسة حال الذي يبقى مع الرؤساء مدة طويلة يخدمهم ويقدم لهم المشورة والنصائح ؛ وهذا هو ما درسه الفارابي . فماذا قال ؟

( ٢ ) - المتعامل مع الرؤساء ، قواعد سلوكية للوزير والمشير والمعلم

يوصي الفارابي الناس ، الذين فُوض إليهم تديرُ الرئيس ، بحسن السياسة التي هي ، هنا ، معرفة الوقت المناسب لتقديم المشورة وإبعاد الرئيس عن المكروه والقبيح ؛ بذلك ينجحون . حسن السياسة يعني ، إذاً ، إقامة التعامل الناجح مع الرئيس ؛ إنها البقاء في قرب الرئيس ، والاستمرار في المحافظة على علائق وثيقة معه .

وبكلمة أخرى ، فإن على الوزير والمشير والمعلم اتباع قواعد في عملهم وتعاملهم وعلاقتهم ، حتى يستطيعوا تأدية وظائفهم في بلاط الرؤساء . فالملك ، أو الرئيس عموماً ، صاحب نفسية خاصة . يقول الفارابي : « إنَّ الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة . إنَّ أراد المرء أن يصرفه إلى ناحية من النواحي ، وواجهه ، أهلك نفسه ، وأتى عليه السيل فأغرقه »<sup>(٤٢)</sup> . ما هي إذن قواعد أو « قوانين السياسة » التي يرسمها الفارابي ؟

( ٣ ) الأساليب المثالية في تقديم النصح للملوك

على الناصح ، سواء أكان وزيراً أم مشيراً أم معلماً ، ألا يخشى الملal ، وخصوصاً من الملوك ؛ « لأن موضع الملal إنما يكون عند كثرة غشيان الناس المواضع التي ليس لهم فيها عمل »<sup>(٤٣)</sup> .

والمبدأ الثاني ، بعد عدم خشية الملal ، يقول : إن على المرشد أن يكون مادحاً للملك . فتقريب جميع ما يأتيه الرئيس من أعمال ، صغيرة أو كبيرة ، طريقة يجدها الفارابي لازمة نافعة في التعامل مع الملوك ، وبخاصة عندما نقصد إلى ارشادهم ، أو تقديم المشورة لهم .

أما المبدأ الثالث ، فهو ألا نواجهه الملك بعنف أو بكل وضوح ؛ لأن الملك كالسيل يغرق من يتصدى له . ولذلك ، لا بد من « السعي معه وعلى جانبه » ، بحسب قول الفارابي . وينبغي التلطف لصرف الملك من جهة إلى جهة ، وأن يُتَطرَّق للموضوع معه من جوانب خفيفة رقيقة ، من دون المواجهة المباشرة والتصدي<sup>(٤٤)</sup> . إن المواجهة الفظة ، ولهجة الأمر ، والنهي الغليظ ، أساليب لا تنفع مع الملوك بل تؤدي إلى عكس الغاية المرجاة .



والمبدأ الرابع الذي يقول به الفارابي هو « سبيل الحكايات » ، وهذا يذكرنا بـابن المقفع<sup>(٤٥)</sup> . فاللجوء للحكاية عن ملوك آخرين ، واستعمال الحيل اللطيفة في التعرض لما نود نصيح الملك به ، طريقان يؤديان إلى المراد (قا. : نظام الملك ، سياسة تامة) .

ثم هناك واجب أن يكون الناصح كائناً لأسرار الملك ، متحرراً في إظهار أنه لا يعرف الأسرار ، وأنه يكتف بالأحوال الظاهرة . فللرؤساء اعتقاد بأنهم أصحاب هِمَمٍ « ينفردون بها عن سواهم من الناس ، وهي أنهم يعتقدون في جميع ما دونهم الاستخدام والاستعباد ، وفي أنفسهم الإصابة في جميع ما يأتونه »<sup>(٤٦)</sup> . ويعيد المعلم الثاني أسباب تلك النفسية عند الرؤساء إلى « كثرة مدح الناس لهم ، واطرائهم أعمالهم ، وتصويبهم آراءهم »<sup>(٤٧)</sup> . فالناس يكثر من مدح الرؤساء ، ومن ثمة يتعود أولئك الرؤساء على سماع الإطراء ويستكثرون منه بالتذاذ أو يروونه حقاً لهم . وهكذا ينفرون من الارشاد أو تقبيح أعمالهم ، أو ممن يُنصَّبُ نفسه رقيباً عليهم ومرشداً .

لا تطلب شيئاً لنفسك من الرئيس ؛ تلك هي الوصية السادسة في « السياسة » الحكيمة لمن يتصدى للخدمة الرؤساء ؛ فلا شيء « أبلغ وأعم نفعاً ، في باب العبودية »<sup>(٤٨)</sup> ، من ترك المرء حظّ نفسه في جميع ما يباشر من الأعمال الرئيسية »<sup>(٤٩)</sup> . فما من أمر يتعاطاه المرء ، مما هو بينه وبين الرئيس ، إلا ويجد لنفسه فيه موضع حظ ، فينبغي أن يتركه ويتجنّب ويستخلص لما هو حظ الرئيس<sup>(٥٠)</sup> . باختصار ، على المشير أو الوزير أو المعلم أن ينسى ذاته ، ولا يطلب لها شيئاً أو منفعة خاصة ؛ عليه فقط أن يظهر اهتمامه بالأوحد بالرئيس وحده . ويسمح الفارابي للوزراء بطلب خدمة شخصية من الملك ، مباشرة ، إذا تعذر تحقيق تلك الخدمة بطريقة أخرى .

وهناك أساليب في طرح السؤال وطلب المنافع ، وهي أساليب تعود إلى قوانين معاشر الرؤساء . في هذا الصدد ، يقول الفارابي : « ينبغي أن يتلطف في نبيل المنافع من جهة الرؤساء ، بأن لا يلج في السؤال ، ولا يديه ... »<sup>(٥١)</sup> . ومن اللازم أيضاً ، في معاشر الرؤساء ، عدم اظهار الطمع والشره .

ويجب أن يجتهد الوزير (أو المشير أو المعلم) « في أن ينتفع بالرئيس ، لا منه ؛ لأن من انتفع بهم أعزوه ، ومن انتفع منهم ملّوه »<sup>(٥٢)</sup> .

#### ٤ - مبادئ أخرى في السياسة إزاء الرؤساء

رأينا الفارابي يقدم أعلاه ثمان قواعد عامة يقول إنها نافعة ، أو يعم نفعها الناس الذين يكونون في مرتبة التعامل مع الأرفعين . ثم إلى تلك الثمانية ، أضاف كاتبنا قاعدتين تنظمان طريقة السؤال ثم عدم اظهار الطمع . ويزيد الفارابي ، فيطلب من المشير أن يضع نفسه عند الملوك « في صورة من ينخلع عن ملكه وقنيتة لهم بأهون كلمة »<sup>(٥٣)</sup> . فهنا لا بد من الحذر ، بحيث ينبغي أن نظهر للرئيس أننا لا نستأثر بشيء دونه ،

واننا تتنازل له عن كل ما لنا وما لدينا عند «أذون السعي» وأقل طلب. وهذا هو المبدأ الثاني عشر. وبَعْدُ أيضاً: إذ المبدأ الثالث عشر هو «أن يحذر أن يتخذ لنفسه شيئاً مما يتفرد به الرئيس»؛ ففي ذلك عرضة للهلاك.

والمبدأ الرابع عشر يقضي بأنه «ينبغي أن لا يظهر من نفسه الاستغناء عن الرؤساء. ويلى ذلك وصية عامة هي أن يكون صاحب تلك الوظيفة، غير مظهر من نفسه الاستغناء عن الرؤساء. بل ويكون أيضاً «مظهراً أبداً قناعة ورضى بكل ما يتصرف فيه من الأمور والأحوال».

أما إذا حلّ سخط الرئيس، أو ملله أو ما شابه ذلك، فهنا يحذر الفارابي «من إظهار العداوة والحقد». بل وأكثر من ذلك أيضاً؛ فمع اخفاء عواطف الرؤوس يجب على هذا أن يظهر أنه هو المسؤول، وأنه وحده المذنب. فلا بد هنا من نقل الذنب عن الرئيس، الذي هو المذنب الحقيقي، إلى الرؤوس وإن كان غير مخطئ. ومع التكرار أو لزيادة الاقتناع، فذاك يعني أن الواجب هو صرف «وجه الذنب منه [من الرئيس] إلى نفسه» (إلى المشير، المتعامل مع الرئيس)؛ ذاك هو المبدأ السابع عشر في سيرورة التعامل مع القويّ تعاملاً ينجع ويستمر لمصلحة الاثنين، بل ولمصلحة الجماعة و«المدينة».

هل هذه، بلغة عصرنا، دبلوماسية؟ أم أنها «تقية» بحسب المعنى القديم لتلك اللفظة؟ ثم، من جهة مختلفة، هل هذا التعامل المتتوي، الاحتمالي، الكاذب، ضروري؟ ما مكانة، ثم ما هي قيمة، ذلك بالنسبة لأفكارية الفارابي بشأن «المدينة الفاضلة» وعند الفارابي نفسه كزاهد فيلسوف؟

كان ذلك نتاجاً ضرورياً لمجتمعات يستبد فيها الرؤساء، ويرون أنفسهم، بحسب قول الفارابي نفسه، أنهم «يعتقدون في جميع من دونهم الاستخدام والاستبعاد، وفي أنفسهم الاصابة في جميع ما يأتونه»<sup>(٥٤)</sup>.

في تلك العلاقات الاجتماعية الفارابية، ضمن شبكة من العلاقات غير المتوازية، لا بد من أن تنوجد التعاملات المتسلطة، وقهر الذات حفاظاً على الوظيفة الاجتماعية؛ إذ - مثلما قال الفارابي - «ما من شيء أبلغ وأعم نفعاً، في باب العبودية، من ترك المرء حظاً نفسه في جميع ما يباشر من الأعمال الرئيسية»<sup>(٥٥)</sup>.

إن مثل تلك العلاقات، التي تعود إلى «باب العبودية»، ما تزال في مجتمعاتنا: حيث التسلط الاجتماعي في المهنة، والعمل اليومي، وعدم المساواة بين الأدنى والأرفع، بل وحيث الجور الاجتماعي، وحيث المجتمع برمته غير قائم على نظم تكفل العدالة والحرية ونمو الشخصية.

وتلك الطرائق الفارابية ما تزال تحكم علاقة الولد بأبيه، والموظف برئيسه، والزوجة أو الابنة بالقادر عليها. فحيث القهر تكون العلاقات الفارابية أبردَ، لكنها لا تكون حقاً ولا هي الأحق. إنها الأنفع، لكنها ليست الأصدق ولا هي الحقيقة؛ وبين ما ينفعنا وما هو صادق وحقيقي تقوم - أحياناً - هوة لا تردمها إلا المصلحية والاتفاعية وقلة احترام كرامة الانسان والقيم. وعدم وجود الحرية يلغي كرامة الانسان، ومن ثمّة

يؤله الإنسان القادرَ اعتبارياً واجتماعياً. اللامحظوظون لا يجدون حلاً لمشكلاتهم إلا في مجتمع حرٍّ يؤمن العدالة. وآداب معاشرَة الرؤساء ، التي رأيناها للفارابي ، تصلح فقط في مجتمع عبودي يقمع أو يعود ، بحسب كلمة الفارابي ، إلى « باب العبودية » . وسنرى ، أدناه ، أن التعاملية مع الأوضاع تتحكم فيها النية عينها (أو المنطق الداخلي عينه) ، التي رأيناها متحركة في العلائق مع الأرفعين . فمن في الوسط ، وإذ يعامل بالتواء وعبودية من هم أرفع منه ، يطلب من الأوضاع أن يعاملوه بالروح عينه الذي قاد علاقاته مع الرؤساء الذين قهره .

### الفقرة الثانية: السلوك الأمثل (أو السياسة) إزاء الأكفاء

يكون الأكفاء إما أصدقاء ، وإما أعداء ، وإما هم ليسوا بأصدقاء ولا أعداء . والأكفاء هم الطبقة الوسطى ، الطبقة الفارابية ، كما سلاحظ أدناه . فما هي السياسة ، بالمعنى الوارد في هذا العمل ، الواجبة الاتباع في تلك المجالات من التعامل؟

#### (١) - السياسة مع الأصدقاء

من المعروف أن موضوع الصداقة في الأدبية ، موجود في أدب الوصايا العربي الاسلامي . فهذا أكثر المقشون وكرروا ، أكثر مما نظروا أو نسقوا في بناء متشاك محكم . وفي هذه الرسالة نجد الفارابي أميل للمقشون والأدبيين (ابن المقفع ، مثلاً) منه إلى النظر الفلسفي (التوحيدي مثلاً) . ونجده يوصي بعموميات سلوكية يراها تقود إلى النجاح ، وتؤمن احترام الغير والتقدير الذاتي .

وعلى ذلك ، فالأصدقاء هم إما « الأصفياء المخلصون » ، وهنا ينبغي للمرء أن يديم ملاطفتهم ، وألا يظهر منهم ملالا أو تقصيراً ، ويجتهد في الاكثار منهم ؛ لأن الصديق « زين المرء ، وعضده ، وعونه ، وناصره ، ومذيع فضائله ، وكاتم هفواته ، ومأحي زلاته »<sup>(٥٦)</sup> ؛ وإما أصدقاء غير مخلصين . فهذا تشبُّ بالصديق ، وتصنع أو تظاهر<sup>(٥٧)</sup> . لذا يقول الفارابي : « فينبغي للمرء أن يجاملهم ... ، ولا يطلعهم عن شيء من أسرارهم ... »<sup>(٥٨)</sup> . ومع أن عليه ألا يدعهم يعرفون عيوبه ، فمن النافع أن يجتهد في « استالتهم والصبر معهم بحسب الظاهر » . ولعلمهم يصيرون في رتبة الأصفياء له .

إن تعهد أحوال الأصدقاء واجب على الإنسان ذي العقيدة الفارابية النظرة ؛ فذلك يزيد علاقاتهم به ، ويقوّي أمله . ويتمظهر ذاك ، بشكل خاص ، عند الحاجة حيث يجب أن يتفقد أقاربهم وعائلاتهم ، ويواسيهم من غير أن يوجههم إلى المسألة . « ومتى عرف ذلك عن المرء ، رغب في صداقته كل أحد . وبذلك يكثر أصدقاؤه » . وهذا هدف الفارابي يرسمه لكل إنسان ، إذ رأى أن كثرة الأصدقاء دليل نجاح . وكذا القول - في تراثنا الشعبي - عن الجمالة ، وإظهار التودد ، وإخفاء العواطف الحقيقية إزاء الكثرة الكثيرة من الناس

وعلى كافة المستويات . بل إن كلمة « سياسة » ، في الوعي الشعبي ، لا تعني أكثر مما يقوله الفارابي من قواعد المسيرة والمجاملة ، وحسن التصرف مع الأدنى والأرفع والكفو . فالسياسة هي ذلك التدبير الحسن ، حيث لا اغضاب لأحد ولا تجريح ومعاداة ، ولا نقد ولا موضوعية . والسياسة ، في معنى آخر قائم أيضاً في الوعي التراثي ، هي خداع وتضليل . والسياسي ، في تلك النظرة ، هو الرجل الذي يبلغ غايته بكل الأساليب الممكنة .

## (٢) - السلوك تجاه الأعداء

والأعداء هم ، على المستوى الثعالي ، صنفان :

أ - ذوو أحقاد : ينبغي للمرء أن يحترس منهم ، ويستطلع أحوالهم كي يقابل ، بالعكس والنقيض ، كلَّ تدبير يدبرونه وكل خديعة يعدونها . بل علينا أن نشكوهم للرؤساء ولأفناء الناس حتى نجعلهم متهمين ، ونفسد خططهم ونسفهم<sup>(٥٩)</sup> . ويدعو الفارابي للقساوة في معاملة العدو الحاقد ، وهي قساوة تصل إلى درجة الغاء كل رغبة أو دعوة إلى التفاهم والحوار . بل هناك دعوة فارابية إلى انتهاز الفرصة للقضاء على العدو الحقود ، وهذا فرد لا دولة . ولا يقول أبو نصر شيئاً عن طرائق القضاء على عدونا الفردي . لكن القضية هنا متعلقة بطبقة من في البلاط .

ب - أعداء حساد : هنا أيضاً نلاحظ أن فيلسوفنا يدعو إلى اظهار العدائية القصوى ؛ إذ يوصي بأنه « ينبغي للمرء أن يظهر للحساد ما يغيظهم ويؤذيهم »<sup>(٦٠)</sup> . لكن ذلك لا يعني عدم وجوب الاحتراز منهم من جهة . وعليه ، من جهة أخرى ، أن يحتال لاظهار « حسدهم فيه وفي غيره من الناس ليُعرفوا بذلك »<sup>(٦١)</sup> .

العدائية ، القساوة ، انتهاز الفرصة ، التشهير ، السلبية ، تأليب الناس على العدو ، بل والسعي للقضاء عليه ، هي طرائق بارزة ، من بين أخرى أيضاً ، في الدعوة الفارابية لمعاملة الحاقدين والحاسدين . وتلك ظاهرة اجتماعية ينتجها ، كما سبق ، المجتمع الفارابي القائم على العبودية ؛ أي حيث القمع أبرز ، والحرية والمساواة مفقودتان . وبكلمة تقول أوسع ، فإن التعامل بالانقهار من جهة ، والطرائق الفارابية في السياسة إزاء الرؤساء من جهة أخرى ، هي نتاج واحد أو وجهان يجدان نظيرهما في الطريقة الفارابية للتعامل مع العدو . فكلها ظواهر ينتجها مجتمع مقسوم إلى طبقات فارابية متصلدة ، ويقودها جبار أو متجبر . وسنجد أن النسغ عينه يجي ، كما سنرى أدناه ، العلائق الفارابية الواجبة الوجود إزاء أفراد المرتبة الوسطى في المجتمع ، الذين ليسوا بصدیق ولا عدو ولا متصنع . ثم يرسم لنا « جلّ ما ينبغي للمرء أن يستعمله مع كل طائفة منها »<sup>(٦٢)</sup> .

### ٣ - السلوك الواجب تجاه « المحايدین » ؛ أي النصحاء والسفهاء والمتكبرين

أ - النصحاء : الواجبية إزاء الذين يتبرعون بالنصيحة هي « أن يتفرّغ [الإنسان] بالخلوة مع كل من ادّعى أنه ناصح » . لكن الدعوة إلى سماع قول الناصح تبقى مقيدةً بوجود تأمل النصائح والتعرّف على أغراضها . فإذا بدتْ للمرء حقيقة تلك النصائح لزم التنفيذ . والأهم ، أن الواجب الآخر هو أن يقابل الإنسان ناصحه « بهشاشة وإظهار حرص على ما يليق به إليه » (٦٣) .

ب - السفهاء : هنا يجب على المرء استعمال الحلم معهم ، وألا يؤاتيهـم ، ولا يقابلهم بما هم فيه من السفاهة . وواجب ثان هو أن « يتلقاهـم بالمحقرة وقلة الاكتراث » ؛ فبذلك يعرفون قلة مبالاة بهـم ، وبما هم فيه (٦٤) .

ت - أهل الكبر والمنافسة : الواجبيات (٦٥) هنا ، كما هي في القطاعات السابقة ، تقضي بالتواضع وحسن المعاشرة . لكن حيث أن هذا المبدأ ليس موجوداً مع أهل الكبر والمنافسة ، فإن على المرء أن يقابلهم بمثله (٦٦) . لأن التواضع معهم يفسّرونه ضعفاً ، ومتى تكبر المرء عليهم آذاهـم « وعلموا أن الذنب في ذلك منهم » ، وبذلك يرجعون إلى التواضع ؛ أي إلى القاعدة الأساسية في حسن المعاشرة .

### الفقرة الثالثة : السياسة إزاء الأوضعين

سياسة المرء مع من دونه تقتضي أولاً التنبيه إلى تصنيفهم ، ومن ثم إلى التعامل مع كل فئة بحسب طبيعتها . وهنا نلقي :

١ - الضعفاء ، وهم المحتاجون وذوو الفاقة ، وهؤلاء صنوف ؛ فمنهم الملحفون ، وهؤلاء يجب ألا نعطيهم كي يئزجروا عن الالتاح والالحاف ؛ إلّا إذا علمنا أنهم فعلاً صادقون ومنهم الكاذبون ، ويجب أن نغيز بين الأدعياء أو متعمدي الكذب . فان كان ادعاؤهم الكذبَ تدبيراً فيجب أن تكون « معاملته معهم في المؤاساة وسطاً من غير منع ولا بذل تام » (٦٧) . ومنهم الضعفاء الصادقون ، وهؤلاء ينبغي تمهدهم « بالمؤاساة بغاية ما أمكنه ، من غير أن يخلّ بأحوال نفسه » .

### ٢ - المتعلمون وذوو الحاجة إلى العلم ، التربويات وآدابية المعلم عند الفارابي

لم يترك الفارابي رسالة خاصة في سياسة الولد (٦٨) ، إلّا أننا نلقى بعض آرائه حول التعليم في الرسالة التي ندرس . وهكذا نستطيع أن نقول : إن التربويات (علم التربية) الفارابية هي السياسة التي ينبغي للمرء أن يستعملها إزاء المتعلمين (وذوي الحاجة إلى العلم) ، وهي قسم من السياسة المنزلية ، وهي واجبيات ، وهي آدابية ، وتعامليات تنصب على الولد والمتعلم .

## أ - المتعلمون والمحتاجون للعلم صنفان :

أولاً ، أولو الطبائع الرديئة : هؤلاء يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها في الشرور . وإذاً يجب أن نحملهم على تهذيب الأخلاق . والمبدأ الثاني في الواجبات هنا هو التنبيه إلى أنه لا يجوز تعليمهم علوماً إذا عرفوها استعملوها فيما لا يجب . أما النقطة الثالثة ، فهي الاجتهاد والسعي في « كشف ما هم عليه من رداءة الطبع ليحذروا » . هنا تنصب الواجبات على المتعلم لتهذيبه . كما يكون هنا واجب إزاء العلوم بأن لا ننقلها إلى صاحب الطبع الرديء . أما واجب المعلم إزاء المجتمع ككل فهو تحذير الناس من رديء الطبع .

ثانياً ، البلداء : يوصي الفارابي بوجوب حثّ بليد الذهن ، أو صاحب الذكاء غير الكافي للتعلم ، على تعلم ما يتوافق مع ذهنه وذكائه . بتعبير حديث ، إن واجب المعلم هنا هو تحويل المتعلم صوب ما يتوافق مع قدراته وكفاءته . وهي نقطة تربوية سنجدها أشدّ بروزاً في التربية السنيوية ، وعند مسكويه والطوسي من الفلاسفة الذين كتبوا في التربويات ونفسانية المتعلمين .

إلا أن الفارابي يقول بصنف ثالث يحتاج للعلم ، وهنا نجد المتعلم ذا الطبع الجيد والخلق الطاهر . وهذه الفئة من المتعلمين ، حيث الأخلاق الطاهرة والطبائع الجيدة<sup>(٦٩)</sup> ، محظوظة عند الفارابي ، تستحق كل عناية ، ولذلك يجب على المعلم « أن لا يذخر عنهم شيئاً مما عنده من العلوم » .

ذاك اللون من التعليم يبدو ، بمنظار حديث ، مخبئاً . إنه ، بعبارة ، أقرب إلى التعليم والواقع في آن الفارابي ، التعليم الذي يتوجه صوب ذوي الأخلاق والجودة . فقد رأى المعلم الثاني حجب العلوم عن رديء الطبع ، والباغي شراً من وراء اكتساب العلوم . إلا أن مفكرنا التربوي الآدابي قال بوجوب محاولة تهذيب هذا الرديء ومراقبته ، وبوجوب وضع الأخلاق غاية للتعليم . والأخلاق هي أيضاً واجبات المعلم ، والمنطلق في العملية التربوية . لكن لماذا لم يتوسع الفارابي هنا مع اطلاعه ، كما تؤكد ، على رسالة برنسون والمكتوبات الهلنستية في السياسة المنزلية ومن ثمة التربية؟ هل السبب أنه كان بلا ولد؟ ربما نجد مجالاً للظن في أن عدم زواج الفارابي ، وتفردّه ، وتزهدّه ، وعدم اقتنائه للخدم ، بعضٌ من أسباب انصرافه عن الكتابة بدينك الموضوعين تفصيلاً أو تخصيصاً . لكن ذلك لا يكفي ، في نظري ، كتعليل ولا يقوم كحجة .

## ب) علاقة التأديب والتنشئة بالعلم المدني

يرد الكلام أيضاً عن التأديب عند فيلسوفنا في معرض تعريف العلم المدني (ويسمى أيضاً الفلسفة المدنية)<sup>(٧٠)</sup> . والعلم المدني هو السياسة ، أو الحكمة العملية ، في أقسامها الموزعة على :

- ١ - سياسة الذات ، وهنا نلقى الأخلاق أو سياسة النفس وفق المبادئ الأخلاقية .
- ٢ - سياسة المنزل التي تحتوي تدبير أمور الولد ، والمرأة ، والميزانية العائلية ، والخدم . بل تحوي ، أيضاً ، هذه السياسة المنزلية ، سياسة المرء نفسه<sup>(٧١)</sup> .

٣ - سياسة المدن ، أو قضايا المجتمع وتعيين الحاكم ، ووظائف الامامة (الخلافة) .

ويضع الفارابي علم الفقه وعلم الكلام فرعين يندرجان مع العلم المدني في الدوحة الخامسة للعلوم<sup>(٧٢)</sup> . فعلم الفقه وعلم الكلام يعودان إما إلى نصرمة الملة (المتكلم) ، وإما إلى استنباط أشياء أخرى في الملة (الفقيه)<sup>(٧٣)</sup> .

في جميع الأحوال ، إن المصطلحات مثل «أنشأ» و«أدب» نلقاها ، بشكل خاص ، في معرض كلام الفارابي عن العلم المدني<sup>(٧٤)</sup> .

#### ت) الطرائق في التعليم والتربويات والآدابية

نلتقى عند الفارابي ، على مثال ما هو ثابت شائع في التربويات العربية الإسلامية ، مبدأ الالحاح على أهمية العلم . هنا نجد الالحاح على تقديم أقوال مكشفة ومأثورات مسبوكة تجدد العلم وأهله ، وتتغنى بوجوب تحصيله وصعوباته ، وبشرفه ، وفضله في الدنيا والآخرة سواء بسواء . وهكذا يردد الفارابي ، مثلاً : « العلم عز لا ذلّ فيه ، ولا يحصل إلا بذلّ لا عزّ فيه »<sup>(٧٥)</sup> .

ومن الأقوال الأخرى ، التي يوردها الفارابي في «جوامع السياسة» ، هناك في مدح العلم : « سئل أفلاطون : لم كلما علمتم أكثر كانت عنايتكم بالتعلم<sup>(٧٦)</sup> أشد؟ قال : لأننا كلما ازددنا علماً ازددنا معرفة بمنفعة العلم »<sup>(٧٧)</sup> . وهناك أيضاً : « الأدب يزئ غنى الغني ، ويستر فقر الفقير »<sup>(٧٨)</sup> ، ثم « من تشاغل بالأدب فأقل ما يربح من ذلك أن لا يتفرغ للخطل »<sup>(٧٩)</sup> . ويقدم الفارابي ، بعد أيضاً أقوالاً مماثلة وللهدف نفسه ، مثل : « الأدب مفارقة الهوى مع مراقبة الرضى ... ؛ حقيقة الأدب اجتاع خصال الخير ، ومنه المأدبة لأن فيها اجتاع لطائف الأغذية » (من الأسئلة اللامعة ... ، مطبوعة مع كتاب الملة ونصوص أخرى نشرة محسن مهدي ، ص ٩٦) .

ومن طرائق التعليم ضرب الأمثال ، وقصّ النوادر والحكايات . فإنّ « في مثل هذا الفن غناء<sup>(٨٠)</sup> عظيماً »<sup>(٨١)</sup> . ولقد جمع الفارابي ملتقطات أو مقتطفات (ولا استبعد أن يكون الفارابي صاغ معظمها) من « أقاويل القدماء وأهل الفضل »<sup>(٨٢)</sup> بقصد تربوي صرف ، وهدف وعظي تعليمي للمتعلمين كافة . وهكذا ، فإن التربويات الفارابية ترى أن اللجوء إلى « أقاويل الحكماء » وضرب الأمثال ، هما طريقتان : واحدة في العمل التربوي ؛ والطريقة الثانية هي أن يتدرّج المتعلم في الاكتساب ، أو « أن يبتدىء بالاعتلاء من الأدنى فالأدنى إلى الأعلى فالأعلى »<sup>(٨٣)</sup> . ويشدّد على طريقة التدرّج في كشف العلم وتقديره . بل إن مؤلفنا اتبع تلك المنهجية في تقديم الفلسفة لطالبيها أو في عرضه للعلوم<sup>(٨٤)</sup> . وهكذا ، فإن كتابه في أغراض أفلاطون وأرسطوطاليس « هو أكبر عون على تعلّم طريق النظر وتعرف وجه الطلب ... وبين كيف التدرّج من بعضها [العلوم] إلى بعض شيء فشيء »<sup>(٨٥)</sup> .

وحيث أن الفارابي، في تربيّاته، يرى وجوب البدء بمعرفة طباع المتعلّم - لأن تلك هي المعرفة الأولى - فانه يرسم للمعلّم طرائق تعليمية متوافقة مع الطباع (الردية، البليدة، الجيدة) للمتعلّمين. ويشدّد الفارابي على دور العلم، وعلى أهمية المعلم الذي هو، نظير الوزير والمشير، ينتمي إلى فئة من الناس شديدة القرب من الطبقة العليا. وبذلك فان وظائف المعلم، ونظيرته، تكون مرتبطة بذلك الموقع داخل المجتمع، وببنفسية الأقوياء والحكام، وبالذور الارشادي التوجيهي للتعليم.

وأخيراً، فان التعلّم الذاتي طريقة في تحصيل المعارف. وهذه كانت سائدة في العصور القديمة. وقد كان الفارابي نفسه «في أول أمره، ناطوراً في بستان بدمشق، وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها»<sup>(٨٦)</sup>. وهكذا، فإنه تعلّم على نفسه علوم العصر، وعمق بنفسه الفلسفة والمنطق. والتعلّم الذاتي هو أيضاً دعوة إلى ممارسة «رياضة النفس» أو «سياسة النفس»، بحيث يطرح الانسان المذمومات ويتحلّى بالمحمودات. ورسم الفارابي للانسان سلوكات تجلب الاحترام الذاتي، والنجاح في الحياة، والفوز في الآخرة، واكتساب تقدير الآخرين.

### ث) الرئيس الفاضل والمعلم المثالي

معروف أن الفارابي يجعل التربيّات أو «سياسة الولد» قسماً من السياسة العامة أو العلم المدني<sup>(٨٧)</sup>. وحيث أن الرئيس في المدينة الفاضلة، عند الفارابي، معلّم وإمام (بالمعنى القريب من الفهم الشيعي الاسماعيلي، لا الشيعي السني أي الزيدي والامامي)، وإذا اتفقنا على أن قول الفارابي في الرئيس هو قول أهل التعليم أو المذهب الباطني (الاسماعيلي، لا الشيعي الاثني عشري أو الزيدي)، فان الكلام في «خصال رئيس المدينة الفاضلة»<sup>(٨٨)</sup>، يصبح بذلك نافعاً لفهم الكلام في «خصال المعلم الفاضل». والقول في «العضو الرئيس»<sup>(٨٩)</sup>، ينفعنا، عند الانتقال للقول في المعلم.

من صفات الرئيس، في المدينة الفاضلة، الصفة السادسة من الصفات الاثنتي عشرة التي يتطلبها الفارابي في الرئيس، ما يولي التعلّم والاستفادة وما يولي التعليم وألمه. فهنا يقول الفارابي عن خصائص في الرئيس: «... أن يكون محباً للتعليم والاستفادة منقاداً له، سهل القبول، لا يؤله تعب التعليم»<sup>(٩٠)</sup>، ولا يؤذيه الكدّ الذي يُنال منه»<sup>(٩١)</sup>.

### ج) برنامج التعليم، أنواع العلوم المعروضة للتدريس

إن تقسيم العلوم، في التربيّات العربية الاسلامية عموماً عمل يهدف إلى عرض العلوم (أو المواد التعليمية) الموجودة، والممكن تعلّمها، والواجب تحصيلها بالتدرج وبحسب سُلّم أولويات. فتقسيم العلوم، عند الكاتب التربوي وعند المفكر بالفلسفة وعند الكاتب التقيمي والكاتب الآدائي، هو تبيان وعرض للبرنامج، لِلّوَحَةِ الأهداف التي ترسم للطالب (طالب العلم، صغيراً كان أو كبيراً)، اختيارات اكتسابية



وتخصّصة. بذلك أستطيع اعتبار كتاب «إحصاء العلوم»<sup>(١٢)</sup> للفارابي كتاباً تعليمياً تربوياً، إلى جانب طبيعته كقاموس متخصص موسع، أو كموسوعة فلسفية، أو عمل فلسفي مستقل مهد الطريق لظهور المعاجم الفلسفية في الشرق وفي الغرب<sup>(١٣)</sup>. فهو، عندي، كتاب تربوي؛ لأنه يقدّم لنا العلوم بتعريفاتها وأهدافها لغاية هي توجيه الطالب صوب العلوم التي توافقه، أو يرنو لتحصيلها إن أراد أو استطاع.

وفي جميع الأحوال، فإن الفارابي يرى أن أول ما يجب تعليمه هو الأخلاق؛ فالأخلاق غاية كل تعلّم وتاج كل تحصيل وطلب. كما أن علينا البدء بتعليم وتعلّم وعلم مبادئ الموجودات، أي، بكلمة أخرى، الدين. فالتربية الدينية، أو تلقن تعاليم الشريعة، هي بداية وأساس، كما هي أيضاً غاية وهدف<sup>(١٤)</sup>.

#### ح) طرائق خاصة في التعليم، المعلم والمتعلم في دنيا الملة أو الدين

في «كتاب الحروف» يتوقف الفارابي ليقول: إن الملة<sup>(١٥)</sup> تُعلّم الأشياء النظرية بالتخييل والاقناع، والتابعون للملة لا يعرفون من طرق التعليم غير هذين. ولذلك، فإن «صناعة الكلام التابعة للملة لا تشعر بغير الأشياء المقنعة، ولا تصحح شيئاً منها إلا بطرق وأقاويل اقناعية»<sup>(١٦)</sup>. ثم يفرّق الفارابي بين نوعين من الأسئلة: هناك، أولاً، سؤال المتعلم للمعلم في علم التعاليم<sup>(١٧)</sup> الذي صار صناعة يقينية ولم يبق فيها بعد ذلك للفحص موضع، ولذلك صارت المخاطبة فيها تعلماً وتعلّماً. وهنا فإن سؤال «المتعلم للمعلم ليس بفحص ولا تنقيح ولا تعقّب لما يقوله المعلم، بل إنما يسأله إما لتصور وتفهم معنى شيء ما في الصناعة، وإما للتيقّن بوجود ذلك الشيء...»<sup>(١٨)</sup>. وهناك، ثانياً، السؤال في الملة. وليس الحال كذلك في العلوم «التي يُحتاج في كثير من الأمور التي فيها إلى ارتياض جدلي، فإن المتعلم إذا سأل عن شيء منها، فإن المعلم إنما ينبغي أن يجيبه أولاً أنه كذلك، ويردّف ذلك بحجة جدلية تبين عنها ذلك الشيء». وعموماً على المعلم والمتعلم أن يتعاونوا: «فالمعلم يبصر المتعلّم وينقله من إبطال إلى إثبات إلى إبطال إلى أن لا يبقى هناك موضع نظر ولا فحص، ثم يردف جميع ذلك بامتحانها بالطرق البرهانية»<sup>(١٩)</sup>. وهنا نلاحظ أن الفارابي يكرر أرسطو في «ما بعد الطبيعة»، لكن بشرح مستقل.

#### الفقرة الرابعة: تأديب النفس بالنفس، الوصايا المنظّمة للسلوكات الفردية الناجحة

تقوم سياسة الانسان لنفسه، أو سياسته نفسه، على تفحص الانسان لأوضاعه، فبالانكفاء للتمحيص والدراسة يميز الانسان بين الأحوال و«يستعمل، في كل حال من أحواله، ما يعود بصلاحتها»<sup>(٢٠)</sup>. وهكذا، فإن أمور القنينة (الاقنناء) والمال هي أول ما على الانسان تأمله. هنا يتكلم الفارابي، ومثلما كان الحال في المجالات السابقة، باسم الواجب وبصيغة الأمر. فالواجب هو تلك الكلمة الآمرة الناهية، أو الكلمة الأساس. ولقد رأينا أن الواجبات الاسلامية، ومنها الآدابية الفارابية، تتوجه إلى الانسان بشكل أوامر

ونواة، تقول: ينبغي للمرء، يجب على الانسان، الواجب أن، لا بد من، الخ. (١٠١). ولذا، فإن التعلّم أو السياسة هنا، هما تعليم الذات للذات. انهما تعلّم العصاميّ حيث إعطاء النية ثم العزيمة مقاماً أول في التأدّب ضمن مجالات الدخل والخرج، وتحصين الأسرار واستجلابها، والمشورة.

#### ١) السياسة في وجوه الدخل والخرج

أ - وجوه الدخل: الواجب الأول على الانسان هو « أن يتأمل وجوه الدخل ووجوه الخرج، ويستقصي النظر في أسباب الدخل والوجوه التي يمكنه استجلاب المال منها إلى ملكه. فيبالغ في استجلابه » (١٠٢). ثم إن تلك المبالغة في استجلاب المال هي الواجب الثاني. ويقضي المبدأ الثالث بأن الاستكثار مقيد باطار عام أخلاقي، بحيث يتلافى المرء الخلل بالأصول؛ أي أن لا يُخِلَّ بدينه، ومروءته، وبعرضه. فهناك وجوه للدخل تنافي تلك الأصول الثلاثة: الدين والمروءة والعرض، علينا الاعراض عنها. ومثال ذلك هو: « الدباغة، والكناسة، والتجارات الخسيسة، والقمار، والوجوه التي لا يحسن بذئ المروءة أن يجتلب المال منها » (١٠٣). لماذا رفض الفارابي تلك الأعمال، واستناداً إلى أي أسس ومعايير؟ سنرى، أدناه، ذلك.

ب - اخراج المال أو الانفاق: هنا نجد الفارابي يقدم منطلقات عامة ومألوفة. فالمبدأ الأول هو أن يكون خرج الانسان، والمنزل عامة، بحسب الدخل.

ت - طلب الاستشهار بالسخاء: السخاء، عند الفارابي، هو انفاق ما ينبغي. ومع أن كاتبنا يطالب بالموازاة بين الدخل والخرج، فانه يوصي المرء بأن « يجتهد أن يُعرفَ بالسخاء ». والسخاء المقصود ليس هو « بذل الأموال حيث اتفق »، لكنه البذل « فيما ينبغي، وحيث ينبغي، وبالمقدار الذي ينبغي » (١٠٤). وهكذا، فالسخاء ليس إسرافاً وتبذيراً بقدر ما هو بذل المال بطريقة مناسبة، في الوقت المناسب، وبالمقدار المناسب، انه - تكراراً موضحاً - دفع المبلغ اللازم، وبالوقت اللازم، وللحال اللازم. فالقيد هنا على إخراج المال قيدٌ منطقي، مُعَقِّلٌ، ونعرفه بالحس السليم والاختبار اليومي، ومهاده القرآني معروف، أيضاً.

ث - استجلاب الجاه، الجاه أرفع من المال: إن الجاه، في المفهوم أو في النظرية الفارابية، قيمة. إنه امتلاك، وشيء يجب حيازته. إن حكمه هو كَحُكْمِ المال والمقتنيات، وبالتالي « فينبغي للمرء أن يجتهد كل الجهد في احراز الجاه لنفسه » (١٠٥)؛ ذلك أن الجاه يزيد المال من جهة، ويزيد في الجاه عينه من جهة أخرى، لأنه يترام، وفي ذلك مدعاة لاكتساب المال أيضاً وتراكمه. الجاه يُكسَبُ ويجلب الثروة، ويوفر المال بالضرورة، « وليس المال يكسب الجاه ضرورة ».

وللجاه جانب ايجابي آخر. فعدا كونه يكسبنا المال، يضمن لهذا المال المجلوب عدم النقصان. لذلك فان الفارابي يوصي بأن على المرء أن « يستجلب للذات والشهوات كلها إلى نفسه بجاهه، لا بماله ». إن المال قد ينقص في حال تخصيصه لاشباع اللذائذ، وعلى هذا فانه ينبغي استعمال الجاه لأجل ذلك؛ لأنه لا ينقص.

وحق حوائج الناس يجب ألا نقضيها بمالنا الذي قد ينقص، ومن ثمت نتعرض للحسد والشماتة من الأعداء<sup>(١٠٦)</sup>. ولذا فالأفضل قضاؤها لهم، ما أمكن ذلك، باللجوء إلى الجاه. لكن الفارابي يستدرك، أو هو يُنبّه، فيقول: «ولسنا نوصى إلى أنه لا ينبغي أن ينفق من ماله شيئاً في اجتلاب لذاته، ولكن إلى أن يكون مُعوّله في ذلك على الجاه لا على المال»<sup>(١٠٧)</sup>.

## ٢) تحصين الأسرار واستخراجها من المناوئين دفاعاً عن الذات وخوفاً من الآخر والمجتمع

إنّ كتمان السر مبدأ معروف في حكمة الشعوب، وفي الحكمة الشعبية، عبر أمثالها وأقوالها الدارجة «وحدّوثاتها». وما يشير إليه الفارابي غير بعيد أو ليس هو أعمق من الأقوال الشائعة اليومية في مجال منافع المحافظة على السر. والنفع الأول لذلك هو أن السرّ ما دام مكتوماً فإن صاحبه أقدر عليه. فالواجب تدبّر الأمر وامسكه عن الإفشاء إلى أن يظهر وجه الصواب؛ والنفع الثاني هو أنّ «في كتمان الآراء والتدابير سلامة من الآفات»<sup>(١٠٨)</sup>. ومن آفات الإفشاء أن اشاعة الآراء قد تصحح موانع عن التنفيذ، وذهاب الجِدّة والطراءة. ومنها أن الرأي إذا ظهر تهيأت له أسباب المناقضة، وإذا كان مُحصّناً سَلِمَ من المناقضة. ومنها أيضاً أن الرأي «إذا ظهر قبل الوقوع قبل بالحفظ والتحرّز، وبطل الرأي والتدبير، وتعطل الوقت الذي أفني في أحكامه»<sup>(١٠٩)</sup>. ويقدم أبو نصر سبباً آخر ثم آخر هما، مثلما ذكرنا، من التدابير التي يصل إليها الفرد العادي إن دعونه ليكتب لنا أو يحدّثنا عن آفات إذاعة رأي أو سرّ قبل الوقت المناسب.

## ٣) المشاورة، واجبياتها وآدابيتها

«ولا بد للمرء من المشاورة مع غيره في آرائه وتديريه»<sup>(١١٠)</sup>. وهذه وصية معروفة في السنة والدين، وفي حكمة الانسان اليومية. ونجدها شديدة البروز في الإدابة العربية الاسلامية كقاعدة مثلى في السلوك، وأمر يفرضه الاختبار الفردي، ونصيحة قالها حكماء الاسلام والأمم الأخرى. ينبغي، بحسب وصية الفارابي، أن نُودع آراءنا ذوي النبل والعقل؛ فهؤلاء لا يذيعون رأياً، ولا يفشون لنا سرّاً. ولذلك فعلينا الاستعانة بهم لقصد إحكام رأيينا وتسديده، بناء على «النظر في اخبار المتقدمين، والاستماع إلى الأحاديث في السياسات»<sup>(١١١)</sup> اللائقة<sup>(١١٢)</sup>. وعلى الانسان أن يظهر للناس ما يضادّ رأيه، لكن «من غير أن يُظهر في نفسه حرصاً على استعمال الأضداد، فانها أيضاً إذا كانت مع حرص مفرط تدل على نفس الأمر، وتوقع التهمة، وتطلب معرفة الأسرار من الأمور الظاهرة والباطنة جميعاً»<sup>(١١٣)</sup>.

ثم يتوسع الفارابي، فيبدو موجهاً كلامه إلى الناس الذين في الحكم والسياسة العامة، فينقل الوصايا حول المشاورة وكتان الأمر من صعيد الانسان عامة إلى صعيد صاحب الأمر والتدبير السياسي؛ إذ إن الفارابي يوجه حديثه السابق، الذي قلنا إنه من النوع المألوف الشائع، إلى الولاة والحكام؛ أي حيث تلقى البطانة وإدناء القاصي «وشدة التطلّع للاخبار، وحرص زائد في الوقوف على الأحاديث المختلطة»<sup>(١١٤)</sup>. هنا يجب

على الرئيس ، على الانسان الذي يشاور وينتفع من النظر في اخبار المتأخرين ، التيقّظ إلى بطانته وخواصه ، فقد يعلنون ما يحاول الرئيس أن يخفيه . وهكذا نعود ، مرة أخرى ، إلى وصايا مخصصة للرئيس ، إلى ذلك الأدب الوعظي الذي يسمّى أدب المرايا ، أدب الوصايا ، مرايا الأمراء والحكام والقادة<sup>(١١٥)</sup> .

#### ٤ - استطلاع الأسرار ، آيّنات للرئيس

من بين أهم الآيّنات قاعدة أن يستطلع الرئيس الأسرار « من أفواه العُجَم والصبيان والجُهّال والنساء والذين هم قليلو التمييز والعقول ؛ فانه ليس مع هؤلاء حصانة ، ولا عندهم من الرزانة ما يمكنهم التحرز به من الافشاء للأسرار »<sup>(١١٦)</sup> . ويدل الفارابي على طريقة أخرى في معرفة الأسرار هي « كثرة المحادثة » ؛ إذ إنه « إذا كثر الكلام والمحادثة فانه لا بد من أن يأتي ذلك على جلّ ما في الضائر »<sup>(١١٧)</sup> . وينبّه الفارابي إلى أن الرئيس ، أو صاحب التدبير ، لا يحظى دائماً بموافقة جميع من يحضرته على كل أمر وكل تدبير . فالواجبية تفرض ، في تلك الحال ، حسن التقرير وإن لم تحصل موافقة الجميع ؛ وهذا رأي فارابي سديد .

رأينا الفارابي ، في رسالته الصغيرة هذه ، ينتقل مراراً عديدة من الكلام المألوف حول السلوكات « المثالية » للفرد العادي ، إلى الانصباب على الرئيس وكل من بيده مقاليد الأمور . فبعد أن رأيناه يوصي الحاكم بطلب المشورة من أهل الرأي ، ومن اختبارات السابقين ، ثم باستطلاع الأسرار ، يدعو الرئيس (والانسان بعامة) إلى أن يطلب العلو على العدو : « إن أول ما يجب أن يستعمله المرء هو أن يطلب العلو على عدوّه في كل فضيلة يُذكر بها إن كان [العدو] من أهل الفضل ، ويتحرّى أن يقف العدو على ذلك ويعلمه منه ، فإن ذلك مما يضعفه ويخمد تأثيره ، وأن يحصي عليه معاييه »<sup>(١١٨)</sup> . فالآداب هنا ليست مجرد دعوة إلى التفوق على العدو باكتساب الأكثر من الفضائل ، بل هي دعوة إلى إعلام ذلك العدو بما نفعله ضده ، وإلى نشر معاييه أمام الجميع . لكن الشروط ، في تلك الواجبية ، هي أن لا نكذب في « إحصاء » تلك المثالب . فان الكذب على العدو قوة له . وعلينا أن نتعرف على أخلاق العدو وعاداته ، لنقابل كل واحد منها بما يضاده ويناقضه (قا : نظام الملك ، سياست نامه) . ويبدى الفارابي عن سلبية كبرى ، أو لنقل ، على الأصح : عن طريقة شديدة الدهاء بل والحقدية العدائية في أدب الوصايا إزاء العدو . فيدعو المرء (الرئيس ، المدينة ، الرجل القادر وغيره) إلى التعرف على ما يقلق العدو كي نعمل على احداث ذلك القلق وتهيجه ؛ ففي ذلك طلب للسلامة من مكاييد العدو ، وطلب للنكاية فيه<sup>(١١٩)</sup> .

#### الفقرة الخامسة : التعاملية والمرأة

سياسة الرجل أهله قسم من السياسة المنزلية ، أو تدبير المنازل ؛ فالرجل ، وفق ذلك المنظور ، يقتني القوات ومن ثمت يحتاج إلى خازن وحافظ . وبذلك تأتي المرأة زوجة تحافظ على مقتنيات وتعني بها وتكثرها . ثم يلي ذلك الأولاد ، وبعدهم تظهر الحاجة للخدم . غير أن هذا القطاع لم يتوضح عند الفارابي ، ولا نستطيع القول

إن الكندي جهله أو بحثه بسبب ضياع كتبه السياسية. إلا أن اخوان الصفا تَنَبَّأ ذلك الفهم للسياسة المنزلية. أما ابن سينا، ومسكويه، والشهرزوري، فقد كتبوا في ذلك المضمار بشكل متواز أو متأثر بتقسيمات بريسون.

لم يتحدث الفارابي في سياسة الرجل زوجته (أهله). ولعله كان في ذلك منطقياً مع نفسه؛ إذ هو لم يتزوج، إلا أنه وضع النساء في «مرتبة الأوضعين» أو مرتبة الذين هم أدنى من الرجل الذي يتحدث إليه الفارابي. وهكذا، فسياستها هي القواعد التي ينبغي اتباعها إزاء من هم في تلك المرتبة المذكورة<sup>(١٣٠)</sup>. بل ويذهب أبو نصر إلى حدّ وضع المرأة مع الصبيان والعُجَم والجهال والذين هم قليلو التمييز والعقول، «فانه ليس مع هؤلاء حصافة ولا عندهم من الرزانة ما يمكنهم التحرّز به من الافشاء للأسرار»<sup>(١٣١)</sup>. إن المرأة هنا، بنظر الفارابي، غير قادرة على كتم الأسرار، ولذلك فهو يدعو الرئيس إلى استكشاف الأسرار من النساء وأمثالهن من (الصبيان والجهال ... و...).

كان فيلسوفنا يعرف أن المرأة حكمت أو كانت ملكة، فهو يقول: «وكان آخر هؤلاء الملوك المرأة فغلبها أوغسطس»<sup>(١٣٢)</sup>. ولعله عرف في بلاط سيف الدولة أن أخت سيف الدولة كانت قادرة حصيفة ذات تمييز ولا تفشي الأسرار، كما أنه عرف سلطة الجوّاري والنساء في بلاطات الحكم الاسلامي. مع ذلك، أو بسبب ذلك، يطالب بابعاد النساء عن السلطة. وهو يرفض أيضاً وضع المرأة في مرتبة يكون الرجل عندها متبعاً لزوجته، يستحسن ما تستحسنه النساء، ويبتغي في كل شيء شهوات امرأته، أو يرفهها ويتولى هو كل ما يحتاج إلى التعب والكّد. ولنقرأ نصه:

«فإن أهل البراري تعمّم محبة الغلبة وعظم النهم في المأكول والمشروب والمنكوح. فلذلك يعظم عندهم أمر النساء، ويحسن عند كثير منهم الفسق، ولا يرون أن ذلك سقوط وتحاسس؛ إذ كانت نفوسهم ذليلة للشهوات. وترى كثيراً منهم يتحمل عند النساء بكل ما يفعل، ويفعل ما يفعله ليعظم شأنه عند النساء، ويرى ما يعيبه النساء هو العيب، وما يستحسنه النساء هو الحسن... وكثير منهم تكون نساؤهم من المتسلطات عليهم والمستوليات على أمور منازلهم. وكثير منهم، لهذا السبب، يرقّهون النساء ولا يتركونهن والكّد بل يلزمونهن الترفّة والراحة، ويتولون هم كل شيء يحتاج إلى التعب والكّد واحتمال المشقة»<sup>(١٣٣)</sup>.

ونظرة الفارابي للمرأة، تلك النظرة الناتجة من مجتمع وأوضاع تاريخية، تندرج بانسجام ضمن فهمه للحياة والفلسفة. وذاك ما استمر طويلاً في تراثنا العام وفي القطاع الفلسفي منه أيضاً.

## القسم الثاني

### آدابية الفارابي

#### (١) - الانتفاع بالأدب، أقوال حكمية، داخل الآدابية الفارابية

من حيث أنه جُمِلَ وعظية، الأدب ينفع غاية المنفعة، من حيث يرتبط بالسياسة، ويؤلف جزءاً من الآيينات والواجبات والتعاملية. هنا نلاحظ أن الفارابي - مثلما في الآدابية العربية عموماً - يقول: «وأصل الأدب مزيلة للأدب في الظاهر»<sup>(١٣٤)</sup>. وهذا يعني أن الأدب سلوكات، وممارسة حياتية، أو هو «مزيلة». ذاك هو، أصلاً، معنى الأدب في العربية، ومن هنا تتأتى آداب السلوك المثالي مثل: أدب المريض، أدب الزيارة أو المعاشرة، أو المؤاساة<sup>(١٣٥)</sup>. الأدب، في «جوامع السياسة» الفارابية، أخلاق واستخراج المبادئ النافعة بقراءة وتحليل سلوكات الناس في حياتهم العامة<sup>(١٣٦)</sup>. إنه ما ينفع؛ أي هو انتفاع وتقوم للسلوك. يقول أبو نصر: «وعمدة الأدب شدة التطلع إلى ما عند الناس، والحرص على التباعد من أن يعرف الناس ما عند المرء. ومنه أيضاً أن يقصد الانسان لغير المقصود ثم يقصد المقصود. ومنه أن يبتدىء بالاعتلاء من الأدنى فالأدنى إلى الأعلى فالأعلى...»<sup>(١٣٧)</sup>.

عند الفارابي، الأدب تحليل سلوكات الناس، وكتمان السر، وإخفاء القصد الحقيقي، والمداورة لبلوغ الهدف، والعمل على الاعتلاء تدريجياً، وأن لا يظهر الغضب أو الرضا بافراط، والصبر إلى أن تسنح الفرصة، إلخ.. وهكذا، فإن الأدب انتفاع، وتأمين الفرص السانحة، ومناورة، ومداورة. فمن الأدب، مثلاً، «أن يلقي المرء الأمر بلسان غيره»<sup>(١٣٨)</sup>. ذلك الأدب سياسة، وسلوك مصلحي، وتهيئة للنجاح. إنه سياسة بالمعنى المعروف في حكمتنا الشعبية؛ أي التلطف للوصول، والتدرج، والمسايرة. إنه سيرورة استخراج المنفعة الشخصية وتأمينها. فليس الأدب فناً تعبيرياً ولا هو نظرة مثالية، ولا هو بؤرة قيم عليا بقدر ما هو، في الآدابية هذه، عامل يساعد على النجاح والاستمرار. لا يخلو من أخلاق، لكنها أخلاق تاجر أكثر مما هي مبادئ سامية مجردة فوق الزمان والمكان والنفعة.

#### (٢) - أقاويل الفلاسفة التي انتقاها الفارابي، الأدب الحكمي

لتأكيد رأيه، يورد الفارابي تنفة من «أقاويل القدماء وأهل الفضل» هي بمثابة الخاتمة لقوله في الأدب أو في سياسة المرء ذاته. وهي، بحسب قوله، أقوال نافعة؛ لأن لها وللحكاي والنوادر والأمثال، في السياسة وتأديب الذات، «غناءً عظيماً». وفيما يلي بعض مما أورده الفارابي تزييناً لآدابه،<sup>(١٣٩)</sup> وتمثيلاً لآييناته وللتعامليات.

قال أفلاطون<sup>(١٤٠)</sup>: الشيء الذي لا ينبغي أن تفعله فلا تفعله.

وقال: من استحق منك الخير فلا تنتظر ابتداءه بالمسألة ليكون التذاذاً وأهنأ توقعاً<sup>(١٣١)</sup>.  
وقيل: خساسة المرء تعرف بشيئين بقوله فيما لا ينفع وإخباره عما لا يسأل عنه<sup>(١٣٢)</sup>.  
وقال: لا تحكم من قبل أن تسمع قول الخصمين ودعواهما<sup>(١٣٣)</sup>.

تجميع وصايا حكمية، ومواعظ حمالة للفضائل في جل مكثفة مثقلة، عمل قام به، من الفلاسفة قبل الفارابي، الكندي. فقد التقط هذا، أو نسج وقمش، باقة من «أدب» الوصايا والتحذيرات والتشجيعات<sup>(١٣٤)</sup>. وسلك، على المنوال عينه اخوان الصفا، بخاصة، وابن سينا الذي أكثر من كتابة رُسُلَات، ذات صفحة أو أقل، تحت على التحلية والتخلية في مجال المواقف من الدنيا والانسان والمستقبل<sup>(١٣٥)</sup>. وهنا نتذكر، كي نفهم ذلك النوع الانتاجي الفكري، حكم العرب كما نلقى بعضها في «الحكمة الخالدة»<sup>(١٣٦)</sup>. فعلى ذلك المهاد أدلى، حتى فلاسفتنا: سائر الكتّاب، وأتى نتاجهم تكراراً يأكل بعضه بعضاً، وفاقد الحيوية والصلة بالواقع، محفراً الانسان باتجاه السلبية أمام الواقع والجسد والدنيا. والكتّاب كان يكتب في ذلك المضمار من دون كبير إيمان بما يقول ويقدم للناس؛ كان كمن يؤدي وظيفته مرغماً: برتابة، وتغييرات طفيفة، وانقفال في قوالب، وانرضاخ لشكليات وقواعد عامة مسبقة مُنمّطة. وداخل تلك الثقافة الأخروية حيث جوح نحو تبخيس الانسان وتزهيدة بالدنيا؛ قواعد سهلة الانتشار وسهلة الصياغة، نلقى أن المنتفع الأكبر منها هو المتسلط أو القادر والحاكم. فالدعوة للتحمل والتجمل، تتوجه للأكثرية، تأتي بمرودود إيجابي لمصلحة غير المغبون. وإذا للوهلة الأولى أن تلك المنتوجات الوعظية نوع من نقد السلطة والاستبداد، فان الكلام أو الثوب اللفظي يطغى على التحليل والمعالجة؛ على الدعوة للصراع والمجاهبة.

### (٣) - تحليل الدعاء الذي وضعه الفارابي

سوف نرى أن تنظيم الآدابية المتعلقة بسياسة النفس سيتوضح أكثر فأكثر عند ابن سينا والطوسي في قطاع السياسة المنزلية التي كتب فيها كل منهما. أما الآن فنهتم بالآدابية التي يرسمها الفارابي لنفسه عبر دعاء يرفعه لله تعالى<sup>(١٣٧)</sup>.

رأينا أن المعرفة بمبادئ الوجود تكون أساسية في العمل السياسي، وتقود السياسة في أقسامها الثلاثة. فالملة هي «آراء وأفعال»، والسياسة آراء وأفعال. والآراء التي انطلق منها الفارابي في سياسة المدينة أو في سياسة المنزل والتعاملات، متعلقة بتعظيم الله والروحانيين والملائكة وبالايمان بأنبيائه. بقول آخر: إن الدعاء لله يكون من الآراء السياسية، مثله في ذلك كمثّل الآراء الأخرى والأفعال التي تُكوّن الملة. فالأفعال المكوّنة للملة هي أفعال بدنية (صلاة، مثلاً) وهي أيضاً أفعال لسانية (دعاء، وذكر لله). والنوعان يؤلفان الدين، يؤلفان السياسة، وهما الدين والسياسة معاً.

وهكذا ، فأننا لفهم السياسة التعاملية والآدائية عند الفارابي ، كما هو الحال أيضاً لفهم سياسة المدينة عنده ، نحتاج إلى فهم دعائه المرفوع لله تعالى ، حيث تحتلط الكلمات الدينية بالمصطلحات الفلسفية الصرفة . بل إن المصطلحات الدينية ترتدي ثوباً فلسفياً ، أو هي مقدمة لنا بتعابير تعود إلى الهلنستيات واليونانيات<sup>(١٣٨)</sup> ، والكَلّ خادم للسياسة بمعناها الشُّمال . وتلك المبادئ المعرفية ، مبادئ الموجودات ، الضرورية في السياسة هي أن نعرف أن الله هو واجب الوجود ، وعلة العلل ، ويفيض على الناس من العقل الفعال ، وهو ربّ « الجوّاري الكُنس » اللوّاقى هن سبع ، منبجسات انبجاساً عن الكون ، وهنّ « الفواعل عن مشيئته » . وتدخل هنا زحل وعطارد والمشتري<sup>(١٣٩)</sup> .

في ذلك « الدعاء » يطلب الفارابي من الله تهذيب النفس ، والخلاص من « أسر الطبائع الأربع »<sup>(١٤٠)</sup> ، ومن « سجن العناصر الأربعة »<sup>(١٤١)</sup> . وهكذا ، فالنزعة الغالبة هي رفض الجسد والشهوات التي هي سباع متغلّبة ، رفض عالم الطبيعة لمصلحة عالم الملائكة . ويشدّد الفارابي على رجائه لله بالقول : « وبغضّ إلى نفسي حب الدنيا »<sup>(١٤٢)</sup> ، فالنفس في سجن ، وتسعى إلى الأوبة إلى المقام القدسي ، تنتظر شمساً من العقل الفعال .

#### ٤ - قصائد الفارابي ، نزعها الضدّ حياتية وال ضدّ مجتمعية

العينات التي يوردها ابن أبي أصيبعة من شعر الفارابي<sup>(١٤٣)</sup> ، إلى جانب سبعة أبيات أخرى نلقاها في الدعاء العظيم<sup>(١٤٤)</sup> ، ذات لون تزهيدي . هنا يرى أبو نصر الزمان « نكسا » ، ولا يرى في الصحة انتفاعاً . وحيث أن الصداق في كل رأس ، فانه يعتزل الناس ، ويلزم بيته ، ويشرب الراح بدل معاشرة الندامى . وبالبحاح شديد لا يعتبر الفارابي الدنيا جديرة ، يرفضها ؛ لأن السماوات هي الأولى بالإنسان العاقل . والإنسان غير متمكن في الأرض ؛ وهو باطل ، زائل ، تعيس ، زائر ، وما يشبه ذلك مما يُقَمَّمُ النظرة التشاؤمية ، واللون الأسود في المأساة البشرية . وقد كان الفارابي نفسه متصوفاً ، زاهداً ، لا يرضى « سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه »<sup>(١٤٥)</sup> . الأرض ، هنا ، مرفوضة ، مأخوذة هي كخادمة تُعَدُّ للفوز بالعالم الثاني ، وبالتالي فإن الجسم ظاهرة علينا نكرانها لمصلحة الروح والتشطّف . ذاك البتر للإنسان ، ذاك الهروب من الواقع ، ذاك الموت قبل الموت ، ذاك النظر للإنسان مأخوذاً على أنه عاجز ، نكوصي ، سلمي ، نظر سيسود بعد الفارابي وسوف يعمقه ، بشكل خاص ، إمامنا وحجتنا الغزالي<sup>(١٤٦)</sup> .

نحن نعرف أن مؤلفات الفارابي أنافت على المئة : فمنها سبعة مذكورة في « فهرست » ابن النديم ، وأربعة في « طبقات » صاعد ، وأورد القفطي أربعة وسبعين ، وابن أبي أصيبعة مئة وثلاثة عشر . إلا أننا لا نعرف كثيراً عن شعره . فقصائده المعروفة قليلة ؛ لكنني لا أشك في قوله الشعر ، استناداً للقاعدة العربية الإسلامية بثقتها ونظرتها إلى الحكيم وإلى الشعر . وعدا الأبيات التي أشرنا إليها أعلاه ، هناك بيتان أوردهما الصفدي ولم ينقلهما عنه ابن أبي أصيبعة ؛ يقولان :



مَلَّـتْ وَأَيْمُ الله نَفْسِي      يَا حَبَّـذَا يَوْمَ حُلُولِ رَمْسِي  
أَوَّلَ سَمْعِي وَزَوَالِ نَحْسِي      إِذْ كُلَّ جَنْسٍ لَاحِقٍ بِالْجَنْسِ (١٤٧).

وينسب إليه الدلجي (حوالي ١٢١٠ هـ). ثلاثة أبيات تخبر أنه قطع عمره بزجاجة حبر، وبأخرى من خمر:

« فَبِـذِي أَدَوْنَ حَكَمِي      وَبِـذِي أَزِيلُ هُمُومَ صَدْرِي » (١٤٨).

وقد أورد له بعض المتأخرين (الخليلي) تلك الأبيات عينها (١٤٩)، بل إن هذا الخليلي ينسب للفارابي بيتين باللغة الفارسية (١٥٠).

ذاك الشعر متميز بالعدائية تجاه الطبيعة. والعدائية عينها هي، هنا، رفض وابتعاد أكثر مما هي هجومية أو ميالة للتسلط والتغلب على الكون والطبيعة. ولا نجد شيئاً من الحب العريض، الحب الذي يتسع ويتعمق فيطال الطبيعة، ويلف البشرية والحياة، والجمال. يقال الأمر عينه بصدد الشعور بالجمال، والبحث عنه، وعن قيمه. لا يفتش الفارابي عن أحاسيس الحس في الخلفيات ولا في الأعيان. لا يرى الجمالات في الطبيعة، ولا في الفنون التي تجسد قيم الذوق والرفافة والروعة تجسداً بالصورة والرقشة، أو بالعمارة والرقصة والبراعة الكتابية. إن العقل قيمة وأداة؛ قاد الانسان في دروب النظر والمعرفة، وفي الوجود. ذاك ما لا يغنيه الفارابي في شعره، ولا في آدابه، ولا في الموقف إزاء العقل الفعّال. والجسد ليس قفصاً، ولا طيناً؛ لا يسجن الروح (أو النفس) ويقيدها بشهواته. وحتى شهواته وميوله الحياتية ليست عدوة للروح. فالوحي بالانسان كائناً واحداً، أو كلاً جيعياً منغرساً في طبيعة بيولوجية اجتماعية، يقود نظرة للانسان مثلى ومتزنة. حالته تتعزز قيم الانسان، والشعور بكرامته وبقدراته على سمو.

بعكس ما يراه الفارابي، ليست الفضيلة إمارة للجسد، وقهر متطلباته، ولحاقاً بالروحي وحده. فالأخلاق ليست أخذاً ثنائياً للانسان، ولا نظرة تجريدية للموجود البشري تغفل الحقل والوقائع والطبيعة البشرية. وحتى الدين نفسه لم ير الفضيلة في الانعزال والتشطف والتخلي. إنّ الإيمان بارادة الانسان، ضعيفة، ورفض الحرية للانسان، هما أكبر الميعقات التي منعت الفارابي من رؤية الانسان قادراً، خلافاً، مجابهاً ومتحدياً بمساعدة العقل وداخل الجماعة. وهذا اللون التزهيدي في الحياة، وتضعيف قوى المجابهة والتحديات عند الانسان، في آدابية الفارابي، يلتقيان، إلى حد ما، مع الايمان بأن السياسة لا تمشي إلى الأفضل.

فالتقدم باتجاه المتفرّق، والأسوأ، والتشتت، منغرس في تراثنا، نلقاه، للمثال، عند الجاحظ والماوردي، والغزالي، والطرطوشي، وابن خلدون، وسائر الصوفيين وعلماء الفكر الديني. فقد كان هناك، عندنا، جنة. وكانت هناك النبوة ووحدة المسلمين. ثم أتت بعد ذلك الحياة على الأرض، والابتعاد عن

النبوة ، وتقهر المسلمين ، وتفرقهم إلى ما يناهز السبعين فرقة . وكان هناك نفس ، ثم أُهبطَتْ من شاهر ، وتقيدت في ادران المحسوسات والجسد ، وما تزال تحمل بالعودة أو الأوبة إلى عالمها الأول : إلى حيث السعادة بالانفكاك من قيود الواقع والطبيعة البدنية والألم ؛ على ذلك المهاد تغذى أبو نصر ، وعمل ، وفكر ، وكتب .

#### ٥ - وصية الفارابي

« ينبغي لمن أراد الشروع في علم الحكمة أن يكون شاباً ، صحيح المزاج ، متأدباً بآداب الأخيار ، قد تعلّم القرآن واللغة وعلم الشرع أولاً . ويكون صيناً عفيفاً ، متحرّجاً ، صدوقاً ، معرضاً عن الفسق والفجور والغدر والخيانة والمكر والخديعة ؛ ويكون فارغ البال عن مصالح معاشه ؛ ويكون مقبلاً على أداء الوظائف الشرعية ، وغير مغلّ بركن من أركان الشريعة ، بل غير مغلّ بأدب من آداب السنة ؛ ويكون معظماً للعلم والعلماء ، ولم يكن عنده لشيء قدر إلا للعلم وأهله ، ولا يتخذ علمه من جملة الحرف والمكاسب وآلة لكسب الأموال . ومن كان بخلاف ذلك فهو حكيم زور ونبهرج . فكما أن المزور لا يعد من الكلام الرصين ، ولا النبهرج من النقود ، فكذلك من كانت أخلاقه خلاف ما ذكرنا لا يُعدّ من جملة الحكماء ... » (١٥١) .

#### ٦ - أنبيائية الفارابي ، منفعة الأنبيائية

ربما يكون للشك فسحة في نسبة «دعاء عظيم» و«الأسئلة اللامعة...» مع إخباريات عن الأنبياء الماضين . فتلك الفسحة من الشك ربما تتعزز لوجود أديب عُرِف ، هو أيضاً ، باسم أبي نصر الفارابي . وذلك الأديب ، وهو أبو نصر الفارابي اسماعيل بن حماد الجوهري (ت حوالي ٣٩٣ - ٤٠٠ هـ) (١٥٢) ، هو ابن أخت فيلسوفنا . لكن هذا الشك غير كاف . فليس بعيداً عن مؤلفات الفارابي ، التي تُقرأ في ابن أبي أصيبعة وفيما نقله الصفدي عن هذا ، أن يكون منها تلك الأقوال الملتقطة ، والأنبيائية ؛ أي ، بكلمة واحدة ، تلك «الفصول المنتزعة» التي ربما تكون هي «الأسئلة اللامعة والأجوبة الجامعة» (١٥٣) .

يبدأ الفارابي انبيائيته بأقوال حكماء لا يسميهم ، وبمواظ ووصايا هي ، كما سبق ، قصيرة ومملوءة بالخبرة الحياتية والتزهد والمعرفة المكثفة . بعد ذلك يشدّد على أن الانبيائية تقصد لإعطاء الحكم والموعظة ، ولاظهار نبوة محمد ورسالته وتثبيت فؤاده (١٥٤) ، ولتقديم العبرة . وهناك أربعة أسباب أخرى يكررها الفارابي كما هي واردة في القرآن ، وكما نجدتها في كتب قصص الأنبياء (١٥٥) . إلا أن أبا نصر يبدو ، هنا ، منظماً ومنظماً ، يكتف ، متديناً إلى أقصى حدّ ، منتفعاً من المنهجية المنطقية في الصياغة الأسلوبية والعرض . أما معلوماته عن الأنبياء فشديدة الكثافة ، ميّالة إلى إبراز العروبة فيها (١٥٦) . وكلما أمعنّت في قراءتها بدا لي الترجيح في تأكيد نسبتها إلى فيلسوفنا الفارابي .

## القسم الثالث

لم يهتم منهجنا بتفكيك الفكرة إلى عناصر مستقلة ثم البحث عن ينبوع كل عنصر على حدة . نحن نعطي الأولوية للوحدة ، للموضوع بجميعيته ، أو للنظرة الفلسفية كما تبدو وكما هي معطاة لنا ضمن سياقها الحضاري وظروفها التاريخية والاجتماعية . فطريقة عزل العناصر ، ثم إعادة كلٍّ منها إلى مصدر ما ، هي الوجه الآخر للطريقة التي كان بها علماء النفس يفسرون الإدراك على أنه مجموعة من العناصر هي أحاسيس متنافرة وصورٌ كثيرة . ثم إن ذلك المنهج ، في الدراسات الفلسفية ، عقيم : يتغاضى عن العوامل الاجتماعية ، واستعدادات البيئة ، وأوضاع الظروف الحضارية ، ومستوى الظواهر في المجتمع والفكر .

ندرس سياسة الفارابي من حيث هي وحدة في حقل عربي اسلامي ، أو غرضٌ ما على خلفية هي مهاده الثقافي الحضاري . وقد رأينا مراراً ، في هذه الدراسة ، أن أوضاع المجتمع وطموحاته وطبيعة العلاقات الاجتماعية هي التي بنت الاطار العام لفكر الفارابي في ميدان التعامل البيئوي ، وفي التنظير لاقامة العلاقات بين فئات المجتمع الثلاث : من هم في الوسط ، والأوضاعيون ، والأرفعون ؛ منتفعاً في ذلك من معارف هلينستية ، ويونانية<sup>(١٥٧)</sup> ، وآدائية ساسانية<sup>(١٥٨)</sup> . وفكر ديني اسلامي<sup>(١٥٩)</sup> ، وغير ذلك مما نجده عند كتابنا الأخلاقيين ، والمقمشين ، وكتاب المرايا وأدب الوصايا بشكل عام<sup>(١٦٠)</sup> .

فمثلاً : إن الظواهر النفسية التي درسها الفارابي ، كالخسد والعداوة والصداقة ، تصدق في مجتمعة لا في كل المجتمعات . وهي ظواهر متعاضدة ، ترتبط بالسلوكات والقيم التي كانت سائدة . وأنماط السلوك والتفكير التي قدمها أبو نصر ليست ثابتة ، ولا هي حتمية . بل هي خاضعة لتطور المجتمع بفاهيمه الكبرى وأمانيه وتركيباته وتوجهاته الرئيسة . وتلك الظواهر درسها بعض المؤلفين الهلينستيين ، وربما كان الفارابي قد قرأها عند بربسون مثلاً في كتيبات حول السياسة المنزلية<sup>(١٦١)</sup> التي نجد أهم تجسيد لها عند ابن سينا في كتابه «السياسات المنزلية» .

- ربما يظن أن الفارابي فيلسوف نظري انقطع للتأمل ، فلم يهتم بالوقائع والحياة اليومية . كما قد نستنتج أن ذلك المترفع عن المطالب المادية والجاهية - وكان يكتفي بأربعة دراهم كل يوم رغم أن سيف الدولة أجزل له العطاء - قد انصرف عن البحث في السلوكات العادية وإدابة الانسان السوي . يتضح من تحليلنا لرسالته في السياسة أنه يقدم نظرات متأسكة تحكم الحياة اليومية والسلوك الانتفاعي التجريبي الذي يوفر النجاح . إن المبادئ التي رسمها للمشير والوزير والمعلم في علاقتهم مع الملوك ، تظهره سياسياً محنكاً أو انساناً يعرف ما يجري بين الرؤساء وفئة الكتاب الذين كان منهم أمثال الفارابي والذين يجتمعون تحت وظيفة المشير والوزير والمعلم .

- في تعاملات الفارابي تبرز علاقة السيد بالعبد التي ستظهر بشكل أجلى عند ابن سينا الذي اقتنى

العبيد ، وقام بوظيفة السيد ، وقال بأن العبد ضروري الوجود كي يشعر السيد بكونه سيداً قادراً ؛ وأن العبد عبداً قابع في المرتبة الأدنى . ويبرز أيضاً ، في تلك التعاملية ، أن فئة الكتّاب ، أي أمثال الفارابي وبخاصة القائمين بأمور سياسية كالوزير والمشير والحاجب وسائر أعوان الحاكم ، فئة مقهورة أمام رئيسها . فأولئك الموظفون يخشون الملك ، ويداورونه ، يخفون عواطفهم ، ويلتثون . إلا أنهم ، من جهة أخرى ، ينتقمون لأنفسهم إذ يطلبون من الفئة الأدنى الخضوع والانقياد . وهنا لن نطيل في شرح هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية . وقواعد التصرف توفر ، كما رأينا مصلحة التعامل مع الملك ، والقيام بمهمة المشورة المقنّعة دون إغضاب ذاك الملك أو رفض الحقيقة . هنا بدت الالتواءات والطرائق غير المباشرة نافعة ، بحيث رأينا الفارابي يدعو إلى التغاضي عن بعض القيم العليا في تلك المعاملات ، وإلى المحافظة على الوظيفة عند الرؤساء مهما غلا الثمن المعنوي والأخلاقي . إن التنبيه إلى الفروق العقلية بين الناس ، وإلى التراتب الاجتماعي بينهم ، أقام السياسة (أو الحكمة الأدبية وقوانين التعامل بين الناس) على تلك الفروق ، وبخاصة على أساس تقييمهم الاجتماعي المسبق الثابت إلى ثلاث رتب غير متساوية القيمة والوظيفة .

- بدا المعلم الثاني ذا نظرة أميل إلى المساواة على الانسان ، وإلى السلبية ، والتشاؤم ، والخوف من الحياة والتعامل . وما يبدو أنه أخلاق هو ، في تعاملات أي نصر ، مبادئ نفعية لا مبادئ مجردة واجبة شاملة تُطبّق مهما كان الحادث والزمان والمكان وعلى كل انسان ودون أدنى شواذ ، وبنية صادقة أو لأن الواجب واجب لا لتحقيق نفع خاص ولا لتحقيق غرض خارج عن ذلك الواجب . فقد كان اهتمام الفارابي منصباً على كيف تسلك في مجتمع ظالم وعلاقات اجتماعية قاسية . لم ينتبه إلى الكل ، إلى المجتمع ، إلى العلاقات وأسبابها . وليست طرائق التغيير الاجتماعي همّه ، فنظرته كانت تهدف إلى تدريب الفرد على المسار الناجح ، وارشاده إلى تحقيق الأغراض النفعية .

- لقد أكثر من الكلام عن الحساد ، والأصدقاء ، والنصحاء ، وكان في ذلك داعية إلى تحسين العلاقات بين البشر وتوفير المصلحة الشخصية لكل منهم ضمن حدود تعاملية سمّاها قواعد سياسية . فالسياسة ، كالفلسفة ، ليست نظراً عاماً فقط . يجب عليها أيضاً أن تهتم بالأمور الحياتية ، وبال يومي ، وبالناس في نشاطاته المتعددة . وهو ، في آدابه تلك ، أو في ذلك القطاع من الحكمة العملية أو السياسية اليومية ، يبدو كاتباً مهتماً بتعزيز اللحمة بين العلاقات الاجتماعية . ونزعتة الإصلاحية ، كما هو الحال في تراثنا عموماً ، تقوم على الوعظ ، والارشاد إلى الأخلاق والمثل العليا . وعلى الأصدق والأعم ، فانه يرسم ما يوفّر النجاح ، ومسايرة الظروف المتعددة المتغيرة . وبذلك تبقى آدابه نوعاً من التدبّر والتأمل . ولم تكن دعوة لإصلاح المجتمع ككل أو لإصلاح المعقود العام ؛ أي البنى الاجتماعية والعلائقية .

- وآدابية التعامل الفارابية تظهره قادراً عارفاً في مجال الدهاء ، واخفاء العواطف ، والتعامل الملتوي ، واستغلال الظروف والملوك واستغلال النفع الفردي من علائقنا اليومية مع كل فئة وداخل كل علاقة مع

الآخرين . وهكذا يظهر لنا أن ذلك الزاهد المنفرد الذي لا يجالس الناس ، والذي عاش في فترة عصفت فيها ببغداد الهزالات والتقهقرات ، كان نافذ المعرفة بالتعامل اليومي مع الملوك ، وبين الأصدقاء ، ومع الأعداء والحساد ، ومع الأوضعين ، وفي قضايا الدخل الفردي والانفاق في مجالات الحياة اليومية والسلوكات التعاملية إبان فترة ضعف اقتصادي لبغداد وانتقال السلطة إلى الأطراف . كان الفارابي زاهداً ، معرضاً عن التعامل اللاأخلاقي والنقصي . وكان فاضلاً ، رضي النفس طالباً الكمال في السلوك ، والطهارة في القلب . كان فيلسوفاً ، حكيماً ، إماماً مثالياً<sup>(١١٢)</sup> . لكنه أبدى عكس ذلك في كتاباته . لا نجد شخصية الفارابي وسلوكاته المثالية ماثلة في كتابته عن التعاملية ، فهذه انتفاعية ، مصلحية ، خُبثية ، قَمْعِيَّة ؛ إنها ملتوية ، وذات أكثر من وجه أو وجوه ، بعيدة عن القيم التي عاشها الفارابي نفسه ، أو طالب بها كخصال للرئيس الفاضل . لقد كان كاتبنا يفكر بواقعه عندما يكتب عن الحساد ، والأعداء ، والأصدقاء ، والتعامل مع الرؤساء . ولكنه كان يحلم ، ويرسم المثاليات عندما كان يكتب مدينته الفاضلة . آدائيته هدفت إلى التعامل الناجح في مجتمع آخذ بالانقسام والهرال ، وداخل علائق غير متوازنة . أما سياسته الفاضلة ، أو فلسفته السياسية الخاصة بالمدينة ، فلم تَرُضَ بذلك التعامل المريض والعلائق القمعية الانرضاخية والمجتمع « الجاهل » . فقد « حرَّم على الفاضل من الناس المقام في السياسات الفاسدة ، ووجبت عليه الهجرة إلى المدن الفاضلة »<sup>(١١٣)</sup> . يجوز إذاً للفيلسوف ، للانسان ، أن يلتوي فقط داخل المجتمعات الفاسدة أو الخسيسة أو الجاهلة .

- الآدابية انتفاع<sup>(١١٤)</sup> ، ومحافظة على الاستمرار داخل الواقع « الفاسد » ، أما السياسة فرفض للانتفاع وروم للمدينة الفاضلة حيث حاكمها فيلسوف ، وحيث علاقات الناس فيما بينهم فاضلة . الأخلاق تسود السياسة الفاضلة ، والانتفاع يقود الآدابية . في الأولى يُظهِرُ الفارابي اقتبالاً للواقع ومعالجة باردة موضوعية للظروف الحياتية ، ويقدم في المدينة الفاضلة آراء مثالية ، وسلوكات لا تشوبها النقائص . والوجهان ، في عمل الفارابي ، ايديولوجيا وفلسفة ، أو هما الواقع والمثال ، الذي يجري والمأ يجب أن يجري . لعل افكارية (ايديولوجية) الدولة الحمدانية تستطيعُ تَسْطِيعُ الضوء على جانبي الفكر السياسي عند أبي نصر : الواقعي حيث التعامل المألوف ، والمثالي حيث الدعوة إلى مدينة فاضلة تتخطى التخلخل السياسي آنذاك ، وتتمثل الأفكار العربية الاسلامية في دعوة إلى الشمولية والمثالية وداخل مدينة هي سائر بقاع المعمورة .

★ ★ ★

نعود تكراراً لتتوقف في ختام تعرّضنا لمشكلة التعامليات والآدابية ، داخل الحكمة العملية في فلسفة الفارابي ، عند نقطتين :

١ - انتقدنا مذهب الفارابي في الانسان ككائن أبتر ينبغي عليه الوقوف ضد جسده وأن لا يؤمن بقوة العقل وبالجمالات وبالحرية والأنا مركزية (Egocentrisme) لذلك الكائن الخلاق المتطور أبداً . وفضلنا على تلك النظرة الواحدية اللامتزنة ، نظرة الصوفيين التي ، بالعكس ، أخذت الانسان موجوداً قادراً على

الارتفاع بنفسه إلى مستوى اجتياف قدرة كل تحديد أو تضيق للطاقة البشرية . ولعل في ذلك الأخذ الناقص للانسان ، عند الفارابي ، بعض العوامل التفسيرية التي قدمت لنا الانسان في المجتمع كائناً يقيم علائق غير حرة ، وأميل إلى السلبية والحذر . فالخوف من الناس ، والثقة القليلة في ميدان التعاملات يبديان انكماشاً ، وسوء ظن ، وعدم محبة للآخر . لقد قلنا : إن التشاؤم سائد ، والعقلية الأخذ - عطائية التجارية مهيمنة ، والخوف من الحياة مع التحرز حتى من الأصدقاء ، كل ذلك هو المتحكم في العلائق الاجتماعية التي يراها الفارابي أساساً لتعاملياته وآدبيته . وهنا نبغ النقطة الثانية المتعلقة بهوة بين التعامل الواقعي الاجتماعي من جهة ، والمثالي المرتبط بالمدينة الفاضلة وبجياة الفارابي نفسه ، الزاهدة المتخيلة من جهة أخرى ، فما هو ذلك التناقض ؟ وهل هو تناقض أو أن المشكلة مطروحة غلطاً ؟

٢ - تلك الثنا قيمة في فكر الفارابي ، ذلك الوجه المزدوج الاتجاه معاً وسوياً وصبوب الانتهازي ونقيضه ، تطرح أسئلة تواصل ذيك النقيضين . فهل الأمر غير موجود أصلاً لسبب أن « جوامع السياسة » ليس من عمل أي نصر فيلسوفنا ؟ أو لسبب آخر هو أن ذلك الكتيب من تأليفات فيلسوفنا الشبابية ، بينما « آراء أهل المدينة الفاضلة » و« السياسة المدنية » وأمثالهما من عمل النضج والرشد وفيها رفض إقامة الحق على القوة ودعا إلى الاقتداء بحياة الفيلسوف الحكيم ؟

في تحليلي ، إن الفارابي ، كما سيفعل فيما بعد أحد كبار المتأثرين به سلباً وإيجاباً وأعني ابن خلدون ، لم ير تناقضاً بين التعاملات حيث الوقائع والعينيات والأمريات (عالم الأمر) وبين المدينة الفاضلة ومثالياتها اللازمة. فالثنا قيمة ، تكافؤ القيمة (ambivalence) وتناقضها ، ظاهرة نفسية ، بارزة في الشخصية . وانطلاقاً من هذه الظاهرة نستطيع تفسير ظواهر نفسية واجتماعية وانسانية واناسية في سيروراتها وتعرجاتها وفي اللاوعي الفردي والجماعي .

وبعد ، أيضاً ، فإن التعايش بين الواقعي والمثالي في الوعي والشخصية والسلوك ليس دائماً وأبداً دليل لا توازن أو لا منطقية أو عجز في الحلّ والبقاء عند التوفيقية والانتقائية .

لقد ارتضى الفارابي الانتفاعية للفرد والانتهازية والأناية لأن ذلك كان حياة البلاط والمدينة حيث عاش أو عاش . فقد رأى الشد والتجاذب والتكاذب والدسائس تصارعاً وتنافساً . فالذكي الموارب يبقى ويربح ، لا المفاضل والصريح ، داخل علائق اجتماعية غير متوازنة وقمعية وحيث الحكام ذوو عقلية متكبرة ترفض المشورة وتقهقر الفضيلة والصراحة . وإذا ، فلكي تعيش في مجتمع من ذاك القبيل والنظم والبنى لا بد لك من السلوكات عينها التي تتحكم وتسيطر . أما داخل المدينة الفاضلة أو في طريقنا إليها ، فتختلف الأحوال والمراحل والمواقف ؛ والقضية بالتالي لا تعود قضية نقيضين بقدر ما هي وصف لمرحلتين ، وتعبير عن حالتين : عما يجب فعله في حياتنا الراهنة داخل مجتمع « جاهل » وما يتوجب تخيله ورسمه لذلك المجتمع كي نرتاح ونخفف التوتر وتوازن ونشبع القيمتين المتناقضتين (المنفرة والمجاذبة) داخل القطاع الواحد عينه

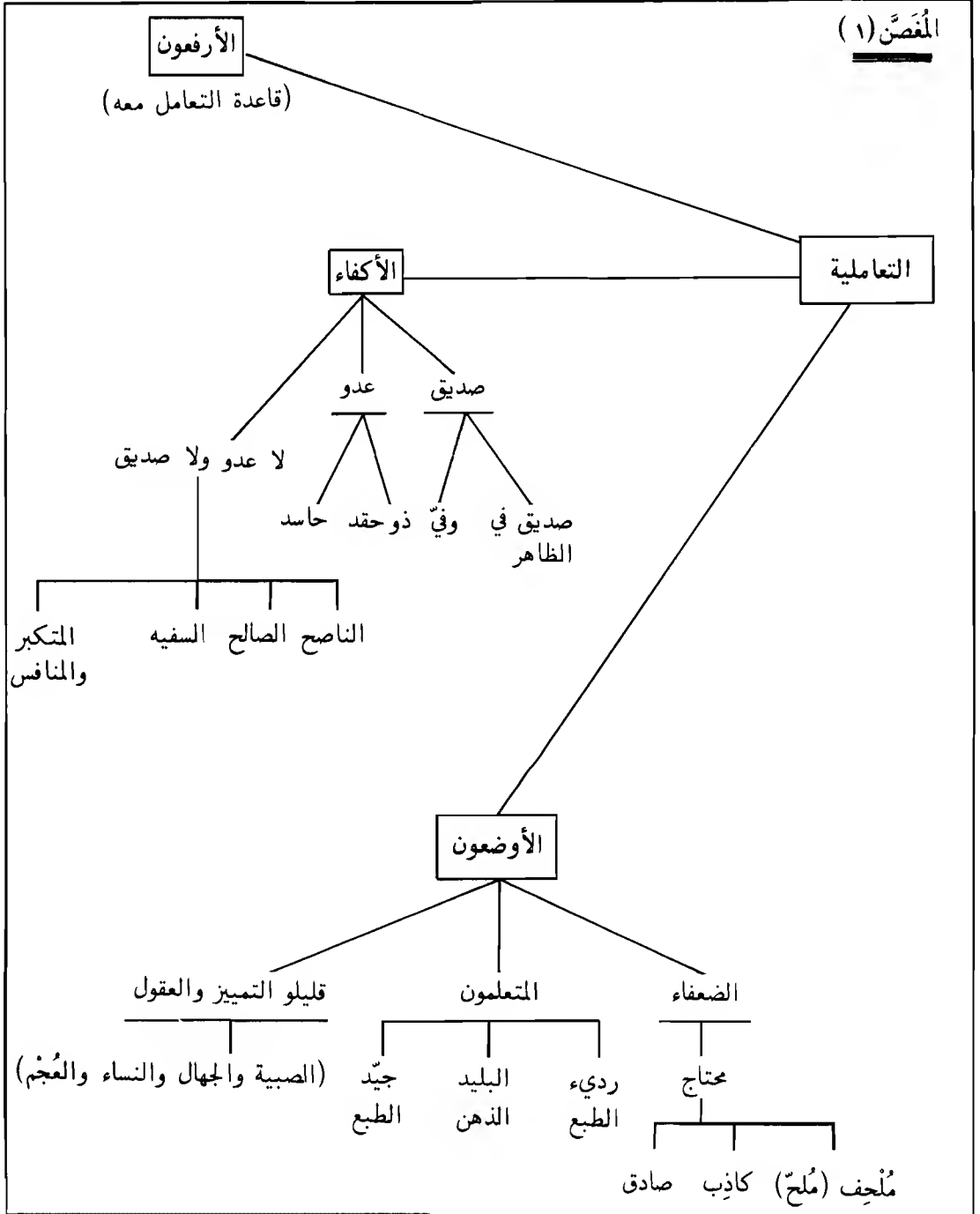
والظاهرة الحية المتعاضدة الواحدة عينها. إن صفات الرئيس الفاضل ووظائفه، كما يودها الفارابي في «مدينته»، تتناقض مع ذينيك الأمرين في التعامليات.

هنا أتوقف قليلاً، ولعلي أرجع فيما بعد، عند الكلام عن السياسة بالمعنى الراهن، للمصطلح ذاك عند الفارابي. لقد بحث أبو نصر قضية الأمة والملة بمعنى ابتعد عن المعنى الديني. وهذا مهم، مهم جداً. فالنزعة المسكونية والنظر بالسياسة الشمولية للأمم كافة، دفعا الفارابي لأن يرى المشكلة عالمية، انسانية، حضارية، تم الانسان والمثل، ارتفع، أو تجرّد. وكان هنا ذا قيمة في الفكر السياسي العالمي. وكذلك أقول: إن فهمه للمجتمع لم يكن دينياً؛ فالمجتمع القائم، المؤسسي، العيني، هو الموضوع الذي درسه الفارابي. لقد حلّل الفارابي المجتمع تحليلاً عياناً، ونظر في الواقع بعقلية واقعية الاتجاه، ومعالجة موضوعية النظرة، ومهد الطريق أمام ابن خلدون.

## المصادر

كتب الفارابي:

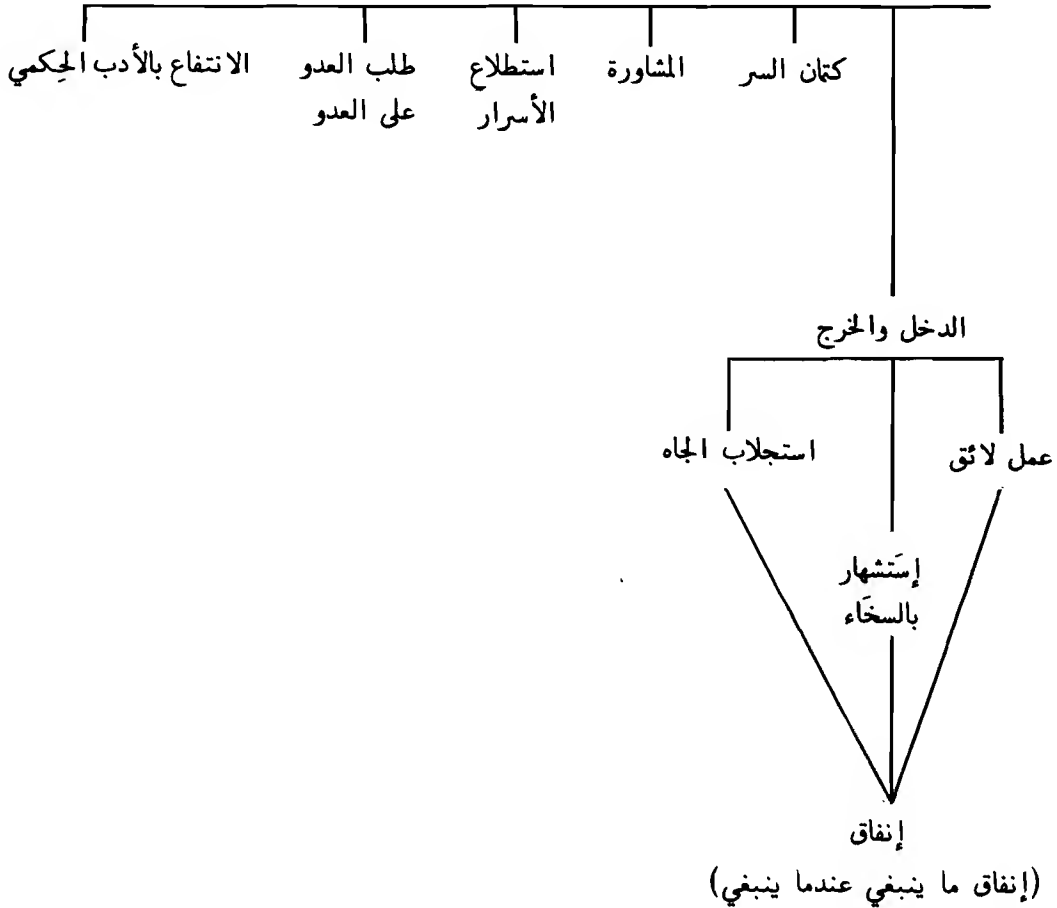
- ١ - «رسالة في السياسة»، نشرة ل. شيخو، مجلة المشرق بيروت، السنة الرابعة (١٩٠١)، ص ١٦ - ١٧؛ نشرة ثانية منقحة لشيخو، عينه، في: «مقالات فلسفية قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب»، المطبعة الكاثوليكية، ١٩١١، ص ١٨ - ٣٤؛ نشرة ي. قمير، في: «الفارابي»، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص ٦٣ - ٨٢؛ نشرة ع. بدوي، في: مسكويه، «الحكمة الخالدة»، بيروت، دار الأندلس، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٣٢٧ - ٣٤٢ و ٣٤٥ - ٣٤٦ (وقد نشرها بدوي، في نشرة أدق من النشرات الواردة أعلاه، بعنوان هو: «كلام أبي نصر الفارابي في وصايا يعم نفعا جميع من يستعملها من جميع طبقات الناس»).
- ٢ - «آراء أهل المدينة الفاضلة»، نشرة أ. نادر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ط ١، ١٩٥٩.
- ٣ - «احصاء العلوم»، نشرة ع. أمين، القاهرة، ط ٢، ١٩٤٩.
- ٤ - «كتاب الحروف»، نشرة م. مهدي، بيروت، دار المشرق، ١٩٧٠.
- ٥ - «كتاب السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات»، نشرة ف. نجار، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤.
- ٦ - «كتاب الملة ونصوص أخرى»، نشرة م. مهدي، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٨.
- ٧ - «كتاب فصول المدني»، نشرة دنلوب، لندن، ١٩٦١.





## المُفَصِّل (٢)

### سياسةُ الانسان نفسه



## الحواشي

- (١) را: ابن منظور، «لسان العرب»، ج ٦، مادة: سوس؛ يقول ابن منظور (م. ع. ج ٦، ص ١٠٨): السياسة هي «القيام على الشيء بما يصلحه». والسياسة لغوياً، تحوي الترويض والتذليل. وساس الأمر: قام به. والسُّوس هو الرياسة. أما السُّوس فهو الأصل والطبع والخلق والسجية. وقد سبق أن جمعنا هذه الدلالات المختلفة لمصطلح سياسة داخل شبكة واحدة. را: الفيروز آبادي، «القاموس المحيط»، ج ٢ (بيروت، دار مكتبة التريبة)، مادة: السوس، ص ٢٣٠.

- (٢) را. التهانوي، «كشاف اصطلاحات الفنون»، ج ١ (القاهرة، وزارة الثقافة...، ١٩٦٣)، المقدمة ص ٥٤، ج ٢، ص ١٣٤ - ٣٥٤.
- (٣) من معاني الدين، يقول التهانوي (كشاف، ج ٢، ص ٣٠٥): هناك السياسة. وبذلك فالدين هو السياسة، وبالعكس، فهما واحد ووحدة.
- (٤) للمثال، را.: «آراء أهل المدينة الفاضلة». الصفحات الأوائل من «جوامع السياسة». ولنتذكر أن كتاب السياسة المدنية «ملقب ب: مبادئ الموجودات أي أن الربط التام موحد بين السياسة ومعرفة المبادئ للموجودات.
- (٥) عن أنواع المدن أو أنماط المجتمعات عند الفارابي، انظر: «آراء أهل المدينة الفاضلة»، ص ١٤١ - ١٤٨.
- (٦) يقول الغزالي، مثلاً، في «المنقذ» (بيروت، ط ٢، ١٩٦٩، ص ٢٤): إن الفلاسفة أخذوا السياسات «من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم الماثورة عن سلف الأنبياء».
- (٧) السياسة، هنا، هي شقان: العلم المدني والتعامل اليومي بين الأفراد؛ إنها جماعية وفردية بتفردية علائقية وحركة المجتمع ككل.
- (٨) الفارابي، «رسالة في السياسة» (أو: «جوامع السياسة»)، نشره شيخو: المشرق، ١٩٠١، ص ٣.
- (٩) أو، في أسلوب الفارابي، أن يتأمل الانسان «أحوال الناس... ما شهدها وما غاب عنه... وأن يعين النظر فيها...».
- (١٠) استعمل الاسلاف السياسات بمعنى علم السياسة. وعلى القياس العام هذا نجد: الالهيات، أي المباحث أو علم الربوبية؛ النبويات أي علم النبوات.
- (١١) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ص ٣.
- (١٢) الفارابي، م. ع.، ص ٣ - ٤. قا. تلك المبادئ عينها في: الفارابي، «آراء أهل المدينة الفاضلة»، ص ٢٣٣ وما بعد؛ «كتاب السياسة المدنية»، ص ٤٣ وما بعد.
- (١٣) أو الآيات في مصطلحات لاحقة. را.: تعريف الموجود في: الفارابي، «كتاب الحروف»، ص ١١٠ وما بعد. وما تزال دراسة الفارابي لمصطلح «وجود» في اللغة العربية أفضل الدراسات. وقد استعملها سرياً بعض المحدثين.
- (١٤) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ص ٣ - ٦. (نشرة قمير، ص ٦٦ - ٦٩؛ نشرة بدوي في: «الحكمة الخالدة» لمسكويه، ص ٣٢٩ - ٣٣٢).
- (١٥) عن علم السياسة وفروعه، را. للمثال: طاش كبري زادة، «مفتاح السعادة...»، ج ١، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٠١ - ٤١٥.
- (١٦) ابن أبي أصيبعة، «عيون الأنباء»، ص ٦٠٩؛ محفوظ، «الفارابي في المراجع العربية»، بغداد، ١٩٧٥، ص ٢٣.
- (١٧) الضفدي، «الوافي بالوفيات»، ج ١، ص ١١٠؛ محفوظ، م. ع.، ص ١٤١.
- (١٨) را: حسين محفوظ، «الفارابي في المراجع العربية»، ص ٢٣، ١١١، ١٤١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٩، ٢٩٤، ٤٠٦.
- (١٩) م. ع.، الصفحات نفسها.
- (٢٠) م. ع.، الصفحات نفسها.
- (٢١) م. ع.، الصفحات نفسها.
- (٢٢) أوردوها باسم «رسالة في السياسة»: الغزنوي في «اتمام التتمة» (تتمة صوان الحكمة)؛ «المنجد في الأدب والعلوم»، ص ٣٧٩.
- را: حسين محفوظ، م. ع.، ص ٧٧، ٣٠٢.
- (٢٣) شيخو، المشرق، ١٩٠١، ص ١ - ١٦.
- (٢٤) محفوظ، ص ٣٢؛ بدوي، في: مسكويه، «الحكمة الخالدة»، بيروت - دار الأندلس، ط ٢، ١٩٨٠، ص ٣٢٧ - ٣٤٦.
- (٢٥) را: حسين علي محفوظ وجعفر آل ياسين، «مؤلفات الفارابي»، بغداد، وزارة الاعلام، ١٩٧٥، ص ١٠٥ - ٢٩١ - ٣٢٢ - ٣٢٣.
- ٤٦٢ - ٤٧٤ - ٤٩١.
- (٢٦) القفطي، «أخبار العلماء...»، ص ١٨٣ - ١٨٤.
- (٢٧) الحكمة العملية عند ابن سينا، الذي أوضح ما قاله الفارابي، هي تدبير الانسان. والتدبير إما أن يكون خاصاً بفرد، وهنا الأخلاق، وإما أن يكون خاصاً بتدبير المنزل، وهنا نجد السياسة المنزلية أو علم تدبير المنازل. أما القسم الثالث فيعرف به «أصناف السياسات والرياسات والمدينة الفاضلة والردية...»، ابن سينا، في «أقسام العلوم العقلية» (ضمن تسع رسائل)، ص ١٠٧.
- (٢٨) لا مجال لاغفال أن ذلك القطاع مبحوث في كتب المفسرين والفقهاء. وقد اهتم به أيضاً الآدابيون والأخلاقون. لكن ذلك ليس ههنا

- هنا، فقد كرّسنا لأولئك فضلاً مستقلاً.
- (٢٩) عن تعريف علم تدبير المنزل، كقطاع من السياسة، را. للثال: طاش كبري زادة، م.ع.، ص٤٠٧. وقد أخطأ المحققان فكتبوا: «بروش»، بدل أن يكتبوا: «بريسن» (Bryson). ويمدّ هذا مصدراً هليينستيا أول في قطاع السياسة المنزلية كما عرف في التراث العربي، ودرسنا ذلك التأثير والتوازي (مع كتاب الاقتصاديات المنسوب لأرسطو) في فصل سابق مستقل.
- (٣٠) الطائفة: الجماعة أو المجموعة من الناس.
- (٣١) الفارابي: «رسالة في السياسة»، نشره شيخو، المشرق، السنة الرابعة، ١٩٠١، ص١.
- (٣٢) نشره شيخو: «السياسات»، والمقطع بكامله غير موجود في نسخة بدوي.
- (٣٣) الفارابي، م.ع.، ص١.
- (٣٤) م.ع.، ص٢.
- (٣٥) سوف نعود إلى دور الفضيلة في تفاوت الناس وتراتبهم.
- (٣٦) الفارابي، م.ع.، ص١.
- (٣٧) يستعمل الفارابي مصطلحي رتبة وطبقة بمعنى واحد.
- (٣٨) الفارابي، م.ع.، ص٢.
- (٣٩) نجد تلك النظرة في كتبه الكبرى، وسنعود إلى هذه النقطة. إلا أن الأخلاق يجب أن تتميز عن سياسة النفس (انظر أدناه).
- (٤٠) يضع الفارابي نفسه، كما هو ملحوظ، في مرتبة الأكفاء. وهذه المرتبة، بوجه عام، تشمل الطبقة الوسطى، القائمة بين الأوسمة والأرفعة، في المجتمع.
- (٤١) تلك هي حال الفارابي في علاقته مع سيف الدولة؛ فقد كان لا يجب أن يغشى مجالس الملوك. إلا أنه كما يظهر، كان ملماً بما يجري في البلاط من فتن وتنافس وداسس.
- (٤٢) الفارابي، م.ع.، ص٦.
- (٤٣) م.ع.، ص٦.
- (٤٤) م.ع.، ص٦ - ٧.
- (٤٥) انظر أدناه، الفارابي وابن المقفع داخل أدب الوصايا أو الواجبات.
- (٤٦) الفارابي، م.ع.، ص٧.
- (٧٤) الفارابي، م.ع.، ص٧.
- (٤٨) العبودية: أن يكون عبداً للملك.
- (٤٩) الأعمال الرئيسية: الأعمال المتعلقة بالرؤساء.
- (٥٠) الفارابي، م.ع.، ص٧ - ٨.
- (٥١) م.ع.، ص٨. وسوف نعود إلى أدبية المعلم والتربويات عند الفارابي (أدناه، فقرة ٣، رقم ٢ وما بعد).
- (٥٢) م.ع.، الصفحة نفسها.
- (٥٣) م.ع.، ص٨.
- (٥٤) و(٥٥) م.ع.، ص٧.
- (٥٦) م.ع.، ص٩. يلاحظ أن النفعية هي المبدأ العام.
- (٥٧) جعل التعامل يجري دون متاعب، بالتراضي والمسايرة، هو الغاية. هنا يسمى الفارابي لجعل الحياة أسلس أو أسعد، لا أقرب إلى الفضيلة والزهادة. المبدأ ثانوي، والشكليات هي الأهم.
- (٥٨) الفارابي، م.ع.، ص٩.
- (٥٩) م.ع.، ص٩ - ١٠.
- (٦٠) م.ع.، ص١٠.
- (٦١) م.ع.، الصفحة نفسها.
- (٦٢) م.ع.، الصفحة نفسها.

- (٦٣) م.ع.، الصنحة نفسها.
- (٦٤) م.ع.، ص ١٠ - ١١.
- (٦٥) الواجبية والواجبات هي علم (أو أدب أو فن) الواجب؛ إنها الفن الذي يعتني بالوصايا الواجبة الاتباع والاعطاء معاً. وهو فن شديد البروز في التراث العربي الإسلامي، ويقترّب من الأدابية.
- (٦٦) م.ع.، ص ١١.
- (٦٧) م.ع.، ص ١١.
- (٦٨) سياسة الولد هي، هنا، تديره أو رياسته. وقد استعملت التربويات الإسلامية مصطلحات أخرى مثل: دستور الصبيان، الحضنة، الافادة، التعليم، التربية، التهذيب، التأديب، الطلب، السماع، التفقه، وكلها مصطلحات تدل على منزلة للمتعلم أذون، ولا تأخذه كشخصية خاصة محترمة في طريق التكوّن والاستقلال. وهذا ما نلاحظه عند الفارابي نفسه؛ إذ يأخذ المتعلم شخصاً ضعيفاً، ذا حاجة، وبمنزلة هي دون منزلة المتعلم.
- (٦٩) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ص ١١.
- (٧٠) را: الفارابي، «إحصاء العلوم»، ص ١٠٢ وما بعد. ونلقى النص عينه محققاً بشكل أفضل في نشرة محسن مهدي، «كتاب الملة ونصوص أخرى»، ص ٦٩ - ٧٦.
- (٧١) لكن هذا التقسيم لم يرد بهذا الوضوح والتفريع الدقيق في «إحصاء العلوم»، فصل: العلم المدني وعلم الفقه وعلم الكلام. إلا أن «جوامع السياسة» تبحث في قطاع الحكمة (أو السياسة) المنزلية. وذاك لم يعد له الفارابي في أي من كتبه الأخرى. فلعل تلك الرسالة في السياسة تعود إلى بدايات العمل التأليفي للمعلم الثاني أو لرغبته في أن يكتب في كل قطاع، وبخاصة في السياسة.
- (٧٢) الفارابي، «إحصاء العلوم»، نشرة عثمان أمين، ص ١٠٧ وما بعد.
- (٧٣) م.ع.، ص ١٠٨.
- (٧٤) م.ع.، ص ١٠٦.
- (٧٥) الفارابي، «كتاب الملة ونصوص أخرى»، ص ٩٥ نص من: «الأسئلة اللامعة والأجوبة الجامعة»، الرقم ٥. حتى لو كان هذا القول الملتقط غير صحيح النسبة للفارابي.
- (٧٦) في نشرة شيخو ونشرة قمير: العلم.
- (٧٧) الفارابي، «رسالة في السياسة»، نشرة شيخو، ص ١٥؛ نشرة قمير، ص ٨٠؛ نشرة بدوي، ص ٣٤٥. وقد أخطأ بدوي بنشره هذه الأقوال مستقلة عن كتاب الفارابي المذكور. طنّها بدوي أفتوالاً التقطها مسكويه نفسه.
- (٧٨) الفارابي، م.ع.، نشرة شيخو، ص ١٥؛ نشرة بدوي، ص ٣٤٦.
- (٧٩) م.ع.، ص ١٦؛ نشرة بدوي، ص ٣٤٦.
- (٨٠) في بدوي = غناء. ق و ش: غناء.
- (٨١) نشرة بدوي، ص ٣٤٥. ش: ص ١٥. ق: ص ٨٠.
- (٨٢) في «الأسئلة اللامعة والأجوبة الجامعة» وفي: الأقاويل الملحقة بـ «جوامع السياسة».
- (٨٣) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ش: ص ١٥، ب: ص ٣٤٢.
- (٨٤) را: أدناه، وصية الفارابي.
- (٨٥) القفطي، ص ١٨٢، والنص عينه بالحرف، في: ابن أبي أصيبعة، ص ٦٠٥.
- (٨٦) ابن أبي أصيبعة، ص ٦٠٣.
- (٨٧) الفارابي، «إحصاء العلوم»، تعريف العلم المدني.
- (٨٨) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، نشرة نادر، بيروت، ط ١، ص ١٠٥ - ١٠٨.
- (٨٩) م.ع.، ص ٩٩ - ١٠٤.
- (٩٠) في إحدى المخطوطات: التعلّم (ولعل هذا هو الأصح).
- (٩١) الفارابي، «آراء أهل المدينة الفاضلة»، ص ١٠٦.
- (٩٢) هو كتاب «لا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه»، (القفطي، ص ١٢٨). والكلمات عينها في: ابن أبي

- أصيبعة، ص ٦٠٥).
- (٩٣) را. : عثمان أمين، مقدمة نشرة لـ «احصاء العلوم»، القاهرة، ط ٢، ١٩٤٩، ص ١٨ - ٢٣، (حيث يتكلم عن أثر الكتاب في العالم الغربي).
- (٩٤) يقول الفارابي («رسالة في السياسة»، ص ٣)، «إن أول ما ينبغي أن يبتدىء به المرء هو أن يعلم أن لهذا العالم وأجزائه صانعاً». فالتعليم الديني أول تعليم ينبغي البدء به.
- (٩٥) الملة، عند الفارابي، «هي آراء وأفعال مقدرة مقيدة بشرائط يرسمها للجميع رئيسهم الأول»: «كتاب الملة»، ص ٤٣.
- (٩٦) الفارابي، «كتاب الحروف»، نشرة محسن مهدي، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٣٢.
- (٩٧) عن تعريف أو حدّ علم التعاليم، را. الفارابي، «احصاء العلوم»، ص ٧٥ - ٩٠.
- (٩٨) الفارابي، «كتاب الحروف»، ص ٢٠٩.
- (٩٩) م. ع. م. ٢٠٩ - ٢١٠.
- (١٠٠) هنا الواجبية، في مجال تأديب النفس للنفس، مجموعة نصائح تقضي بتدبر الذات للذات أو بالتعرف الحاذق على أحوالها. بعد ذلك تأتي مرحلة التحلية والتخلية، وهما مرحلتان سجدهما أوضح عند ابن سينا، ووجدناهما عند بريسون (Bryson) والكتابات الهلنستية الأخرى.
- (١٠١) ربطنا، في مكان آخر، الآدابيات بالقول الديني عن: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».
- (١٠٢) الفارابي، م. ع. م. ١٢.
- (١٠٣) م. ع. م. ١٢.
- (١٠٤) م. ع. م. يلاحظ أن هذه الجملة الفارابية حسنة السبك، تتعلقتنا، وتشد إليها.
- (١٠٥) الفارابي، م. ع. م. ١٢. هنا مجالات عديدة للمقارنة بين أفكار الفارابي حول الجاه ونظرية ابن خلدون في تلك الظاهرة عينها. سيكون مفيداً القول بتأثير اجتماعيات واقتصاديات الفارابي في الفكر الخلدوني الواقعي. أما ابن سينا فقد أخذ ذلك القطاع عند الفارابي وجمعه في كتب متفرقة وخاصة في «رسالة في السياسة المنزلية».
- (١٠٦) الخوف من الحسد ومن الشائنة ملحوظ في أدبية الفارابي. وهو خوف يبرز في مجتمع لا تسوده الاتزانة في العلاقات الاجتماعية.
- (١٠٧) الملاحظة نفسها.
- (١٠٨) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ص ١٣.
- (١٠٩) م. ع. م. ١٣.
- (١١٠) م. ع. م. ١٣.
- (١١١) لاحظ هنا «السياسات اللائقة» من حيث الدلالة والوظيفة.
- (١١٢) م. ع. م. ١٣.
- (١١٣) م. ع. م. ١٣.
- (١١٤) الفارابي، م. ع. م. ١٤.
- (١١٥) خصصنا لها فصلاً مستقلاً.
- (١١٦) و(١١٧) الفارابي، م. ع. م. ١٤.
- (١١٨) م. ع. م. ١٤.
- (١١٩) قا. : الخوارزما والأندرزها والآيينات في الفكر العربي الاسلامي. را. : للمثال: مسكويه، «الحكمة الخالدة».
- (١٢٠) را. : أعلاه، القسم الأول، الفقرة ٣.
- (١٢١) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ص ١٤، نشرة قمير، ص ٧٨؛ نشرة بدوي، ص ٣٤١.
- (١٢٢) ابن أبي أصيبعة، ص ٦٠٤.
- (١٢٣) الفارابي، «كتاب السياسة المدنية...»، ص ١٠٣.
- (١٢٤) الفارابي، «رسالة في السياسة»، ص ١٤. نشرة قمير، ص ٧٩. أما بدوي فيكتب «أرب» (بالراء)، بدلاً من أدب (بالدال)، ص ٣٤٣.

- (١٢٥) را : نظرنا إلى الأدب من حيث هو سلوك ونظر، كتابة وممارسة، فكر وعمل. فالأدب حالة كمالية وتعبيرات عن الفعامة والامتلاء (الفصل السابق).
- (١٢٦) والأدب هو، في جانبه الآخر المتلازم مع النظر والقول، تَمَثُّلُ أقاويل الحكماء للتروّض بها، والتأدّب، والتَهذُّب، وأخذ السياسة والوصايا اللائقة.
- (١٢٧) الفارابي م. ع.، ص ١٥.
- (١٢٨) الفارابي م. ع.، ص ١٥، نشرة بدوي، ص ٣٤٢. (وهنا أيضاً يضع بدوي كلمة «أرب» عوضاً عن «أدب»).
- (١٢٩) را. الفارابي، م. ع.، ص ١٥ - ١٦؛ ونشرة قمير، ص ٨٠ - ٨٢؛ ونشرة بدوي، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.
- (١٣٠) بدوي: أفلاطن.
- (١٣١) بدوي: موقعاً.
- (١٣٢) الجملة بكاملها غير موجودة في بدوي، وهي لا تلزم.
- (١٣٣) ودعواهما: ساقطة في شيخو وقمير.
- (١٣٤) عن وصايا الكندي لابنه، را. : ابن أبي أصيبعة، «عيون»، ص ٢٨٧ - ٢٨٩.
- (١٣٥) نشرنا له كثرة منها (حوالي العشر).
- (١٣٦) مسكويه: «الحكمة الخالدة»، ص ١٠٣ وما بعد.
- (١٣٧) الفارابي، «كتاب الملة...»، تحقيق محسن مهدي، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٨، ص ٨٩ - ٩٢. وذاك «الدعاء العظيم» منشور أيضاً في ابن أبي أصيبعة، نشرة نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥، ص ٦٠٦ - ٦٠٧. وفي الصفدي، «الوفاي بالوفيات»، نشرة ريترو ديدرنغ، ج ١، ص ١١١ - ١١٣. ولابن سينا، الذي نلجأ إليه لتوضيح الفارابي أحياناً، أكثر من دعاء مماثل.
- (١٣٨) في هذا الدعاء يبرز المنحى الفلسفي في تفسير القرآن. قا: التفسير القرآني عند ابن سينا، مجلة «المسيرة»، بيروت العدد ٨، السنة ١، ١٩٨٠، ص ١٥٧ - ١٥٩.
- (١٣٩) أورد ناشر «عيون الأنبياء» لابن أبي أصيبعة (نزار رضا) هذه الآيات للفارابي على أنها نثر.
- (١٤٠) الفارابي، «دعاء عظيم» (مطبوع مع «كتاب الملة»)، ص ٩٠.
- (١٤١) م. ع.، ص ٩١.
- (١٤٢) م. ع.، ص ٩٠.
- (١٤٣) را. : ابن أبي أصيبعة، ص ١٠٦ - ١٠٧.
- (١٤٤) في «دعاء عظيم» يقدم الفارابي قصاً أول مؤلفاً من ثلاثة أبيات رائية. ثم يقدم، بعد كلام دعائي موجّه لله تعالى، قصاً آخر من أربعة أبيات تظهر تنمة للآيات السابقة (القافية عينها، والبحر عينه، والنقّس عينه).
- (١٤٥) ابن أبي أصيبعة، ص ٦٠٤.
- (١٤٦) لا نبحت هنا في الأسباب الموضوعية والظروف التاريخية التي كونت تلك النظرة التحقيرية لسير الانسان. الايمان بأن الانسان يسير نحو الأفضل غير منفوس في تراثنا.
- (١٤٧) الصفدي، «الوفاي بالوفيات»، ج ١، ص ١١٣؛ حسين محفوظ، م. ع.، ص ١٤٤.
- (١٤٨) الدجلي، «الفلاكة والمفلكون» (طبعة النجف)، ص ١٤١؛ عن. حسين محفوظ، م. ع.، ص ٢٠٧.
- (١٤٩) را. : محمد الخليلي، «معجم أدباء الأطباء»، ج ٣، ص ١١٦ - ١٢٤؛ عن: حسين محفوظ، م. ع.، ص ٢٧٦.
- (١٥٠) محفوظ، ص ٢٧٨.
- (١٥١) را. : البيهقي، «تاريخ حكماء الاسلام»، ص ٣٤ - ٣٥؛ «تنمة صوان الحكمة»، ص ١٦ - ٢٠.
- (١٥٢) مطبوعة مع «كتاب الملة...»، نشرة محسن مهدي، ص ٩٥ - ١١٥.
- (١٥٣) را. : محسن مهدي، «كتاب الملة...»، ص ٣٤ - ٣٨.
- (١٥٤) هنا يستند الفارابي إلى الآية: «وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك» (هود: ١٢٠).
- (١٥٥) للمثال، را. : التعلي، «قصص الأنبياء»، بيروت، المكتبة الثقافية، د. ت.، ص ٢ - ٣.
- (١٥٦) حاولنا في مكان آخر، تقديم انبيائية أقرب إلى العرب، وإلى الساميين عموماً، أكثر مما قد تبدو قريبة عما سمي بالاسرائيليات.

- (١٥٧) حذفنا، بسبب طول هذا البحث، قسمًا خاصًا بدراسة التأثيرات والتوازيات الهلنستية في السياسة المنزلية الإسلامية. كما حذفنا، للسبب عينه، قسم المقارنات وبخاصة المقارنة مع: ابن سينا، مسكويه، الطوسي.
- (١٥٨) قا.، للمثال والمعينات، مسكويه، «الحكمة الخالدة»، ص٢٦ وما بعد.
- (١٥٩) أفردنا فصلاً خاصاً بكتاب مرايا الأمراء وأدب الوصايا في مجالات الكتابة والقيادة، والحجابه والوزارة، وفي الآيينات العامة حيث آداب المنادمة والمؤاكلة والعيادة.
- (١٦٠) الملاحظة نفسها.
- (١٦١) ابن أبي أصيبعة، ص٩٤، ٩٦.
- (١٦٢) قا: دعاؤه العظيم حيث يتبدى أن طلبه الأعلى هو الحكمة والفضيلة.
- (١٦٣) الفارابي، فصول منتزعة.
- (١٦٤) قا. الأدابية عند ابن المقفع، ابن قتيبة، بنص كتاب المجاحظ، المصري، ابن عبد ربه، والكتب التكميلية. ونلقى كثرة من «أقاويل الحكماء» مع أمثال وحكم ومواعظ قصيرة مسبوكة في: مسكويه، «الحكمة الخالدة»، ابن هندو، وابن فاتك. وكذلك قمش الشهرستاني وابن أبي أصيبعة أقوالاً حكيمة كثيرة منسوبة إلى يونانيين وهلينستيين وفرس وروم.